بين قلبين

" زهراء قلبي .. وقلبي طوع بنانها "

" رواية "

منى محمد سليمان

بين قلبين

زهراء قلبي .. وقلبي طوع بنانها

▪ رواية ▪

اسم الكاتبة: منى محمد سليمان

تصميم الغلاف: عبير محمد

الإخراج الفنيّ : جمال عبدالرحيم

رقم الإيداع: ٢٨٤٧٣ /٢٠١٧

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – مدينة السادس من أكتوبر

موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،

أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛

يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

نَثرتُ شِعرًا عندَ عَتباتِ مُنـــادِ فَطرقتُ البابَ طرقًا فأجابني يُنادي
زَهرةَ النرجسِ البَيضاء والشوقُ ينادي فَأجبتِ النِـــداءَ فَنِعمَ المُنادي
أَقبلْ عَليَّ إذْ أَجبتُ المُنـــادي وأَفِض عَليَّ من صَوتِكَ الشـــادي
تَرانـــيمُ وُدِّكَ قد سَكنَت هُنا وأَشعلتْ نارَ خالِـــص الودِّ والوِدادِ
مَلَّكتُكَ قَلبًا فَاصنَع مـــا شِئْت إنْ شِئتَ وإنْ شِئتَ كُنتَ سَيِّدَ الأسيادِ
وقَد سَألتُ فأَقسَمتَ إنْ تُفارِق عَهدنا الماضي فقد تاهَ النِداءُ وهَلَكَ المُنــادي
سَألتُكَ أنْ تُنادي كَما اعتدتَ أنْ تُنادي زَهرةَ النَرجسِ البَيضاء والشُوقُ يُنادي

أمسك بيدي ..

وحلّق معي ..

ها أنت تبتسم ..

ويدك بيدي ..

*أبيات تواترت بين المحبّ والحبيب تعزف بلحن آسر شجي ..

يدندن بها أحدهم ..

متى زاره الشوق ..

متى أسره الحزن ..

متى كان في حاجة إليها ..

الفصل الأول

تفقَّدته بعينيها الناعستين قبيل الفجر بقليل .. لتجد أنه قد استعد للرحيل ويكاد ينتهي .. حاولت النهوض فترك ما في يده وأسرع إليها .. يعينها حتى استندت إلى ظهر السرير خلف كومة من الوسادات التي صُنعت خصيصا لراحتها .. فعلت ذلك وهي تعضّ على شفتيها وتكتم الألم الرهيب مخافة أن ترى في عينيه .. خوفه إشفاقه عليها ..

. اعتذرت بصوت مرهق متعب: لقد سلبني الألم راحتي فعذرا منك مولاي ..

. هو اعتذار لم يجد في أذنه صدى غير صدى خوفه عليها .. فتخاذل خلفه ثم اختفى: بالله عليك .. لا تكذبي علي وأصدقيني القول هل أنت بخير؟ أتشعرين بألم؟

. ابتسمت ثم أردفت بشيء من العتاب: لست بخير مادمت في قلق دائم عليك .. أين تلك البطانة الفولاذية التي أوصيتك أن ترتديها أسفل درعك النحاسية هذه، والتي لا تريح لي بالا ولا تسكن لي قلبا ..

. تعجَّب من قولها ثم نظر حيث المكان المنشود: يبدو أنني لم أكن حذرا . تحذر مِمَّ؟

. من خوفك علي ..

. بنظرة حانية وبصوت خشعت له الأطيار إنصاتا: ومن لي سواك يا قرة العين و زهرة فؤادي "أميمة".. أخشى عليهما ..

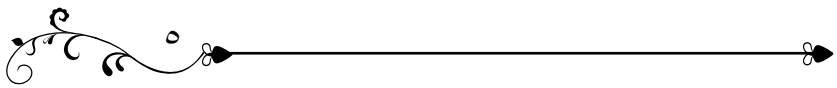

. مِمَّ؟

. عليها من أعين الحساد .. وعليك من سيوف الأعداء وغدرهم ..

. أما بنيتي .. فدعائي لها أن يكفيها الله شر أعينهم بما شاء، وأما أنا فهي إحدى الحسنيين ..

إما الشهادة وإما النصر.. ألست من قال:

ألا يا من أبصرتُ في عينَيـهْ لونَ الوغى وحبَّ القتـــــالْ

من أنا التي تُقارعُ بالجِنـانْ تُهْ في بحرٍلن تتوهَ فيه أبدًا ولا تُبالْ

ردا عليه حين تغزل بها قائلا :

كُحلٌ خُطَّ بافتِتـــــانْ وقَوامٌ قُدَّ بإتقـــــانْ

آيةٌ في الحسنِ والجمـــالْ عقلٌ مستنيرٌراجحٌ يخطو باتـزانْ

ألا يا أهلَ بيتٍ كـــرام قد تُهتُ في بحر حبِّكُم والجِنـانْ

. فسألها آنذاك: أحقّا ما تقولين؟

. فردت عليه حينها: وهل ترى في عيني غير ذلك؟

. بل أرى فيهما كل ذلك ..

لتنتهي تلك اللحظات بتلك الكلمات ..

. أجابته بصحبة دليل لم يضنها تعب البحث عنه، فقد كان حاضرا .. تبسملت ثم تلت قوله تعالى: "وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن

بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُون"[١] .. "لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ" .. أكدت ذلك بلهجة الظافر المنتصر..

. "لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ" هه .. بنظرة المتفحص وهمهمة المغلوب وهو يهز رأسه إيجابا لسرعة بديهتها .. "لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ".. حسنا سأرتديها بالرغم من أنَّه .. لا أفضل عندي من شيء خفيف يُسهّل عَلَيَّ حركتي .. ولكني مع ذلك سأرتديها فقد أفحمتني إجابتك .. تنهَّد واستقام واقفا فلما انتهى .. دعته للاقتراب منها فاقترب .. دعكت شيئا من العطر بين راحَتَيْ يديْها ثم انحت إليه وقد خفّ ألمها قليلا .. "بإسم الله" .. ثم دهنت بهما .. تداعب بأنامل ذهبية اصطبغت برائحة زكية خصلات لحيته الكثة الناعمة السوداء ..

عطر فواح ..
بل هو عطر وجهها الفواح ..
وقد تاه الحبيب في جماله ..
قد اختلج[٢] قلبه في حدود رسمه ..
قد جدّد بالحُب عهده بين ثنايا حروف اسمها .. "الزهراء" .. فاقترب أكثر ..

سار "الهيثم" على رأس كتيبة قوامها عشرة آلاف مقاتل .. ليلحق بعد يومين بالجيش المرابط على تخوم[١] البلاد والذي يحمل في تعداده

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٠

(٢) اختلج: بمعنى تحرك شيء بداخله

عشرات أضعاف ما أتى به من جند .. وبعد مسيرة يوم آخر وعند ظهر ذلك اليوم .. اصطف الفريقان في مواجهة أخيرة .. بعد حروب ومناوشات كثيرة .. وبعد أن تمادى العدو في عدوانه وتعدّى على ما ليس له بحق .. لتصدح كلمة الإسلام عاليا ..

الله أكبر.. رُقِّعت بها الأعلام السوداء ..

الله أكبر.. حُفِرت بها القلوب البيضاء ..

الله أكبر.. بداية لمعركة أخيرة ستفصل بين الحق والباطل ..

وستشهد عليها كل ذرة من رمال الصحراء ..

بدأ النزال بأن تقدَّم الهيثم بطلب مواجهة أقوى رجالهم شرط أن يعلن الخاسر منهما وعلى لسان أصحابه الاستسلام التام فتُوقَّع حينها الاتفاقيات التي يُضمن بها حقن الدماء وحفظ البلاد .. فتقدم لذلك رجل ضخم الجثة .. حليق الرأس .. حليق الوجه .. أشعر الجسد يحمل في يده حربة ذهبية يخيَّل إليك من شكله أنَّه .. كدبِّ مُدبدب[٢] قد انتفخت أوداجه[٣] عطِشٌ متعطشٌ لسفك دماء فريسته .. إنه القائد العام لجيوشهم الملقبة بـ "أحباب المعبودة" .. وهي شابة في العشرين من عمرها .. تصطف الآن مع القسم الأكبر من جيشها خلف الصفوف الأمامية منه .. هي شابة حمراء لونها كالدم القاني .. يختفي بياض عينيها في سواد مقلتيها فهي سوداء .. وشعر أبيض

---

(١) تخوم: حدود

(٢) مدبدب: صاخب

(٣) أوداج: عروقه

طويل حتى أخمص قدميْها يفري[١] نصف جسدها بينما تهيكل النصف الآخر وجف ماؤه وكذاك .. نصف وجهها .. هي طفلة ولدت من شَرٍ وأُشربت شَرًا حتى .. تفحم[٢] قلبها كرها وحقدا على جمال الحياة من حولها .. تعلمت فنون السحر والشعوذة حتى أصبحت قادرة على التحكم بعقول من حولها وقد أذنت له فتقدم .. وكذاك الهيثم الذي لحق به جواده الأورق[٣] "الأكحل" فلما فعل .. حاول أحدٌ ثنيه فكاد الأخير أن يُرديَه قتيلا .. فالأكحل جوادٌ عنيدٌ شديد الغضب ويبدو ذلك جليا .. من لون عيْنيْه وشدَّة أنفاسه .. لا يقبل أن تمسّه الأيادي ولا يجد الراحة إلا في صحبة فرسه المفضلة "الشقراء" والتي .. أنجب منها العديد من المهور وبالطبع .. صاحبه ورفيقه في غيابها .. الهيثم الذي أسرع حالا إلى تهدئته ثم إلى الجندي فاعتذر منه ووصّاه برقيق القول وحذّره .. وكذاك هو الهيثم .. متواضع مع الكُل، قد تخادن[٤] جمال خَلقه[٥] مع جمال خُلقه حتى أصبح كالدواء الشافي .. لقلب كُل من يراه ثم .. أمرهم بأن يتركوه على سجيته فإن شاء لحق به وإن شاء .. لم يفعل.

وقد تقدَّم حتى أصبح على بُعد ثلاثين خطوة منه .. والنزال لن يكون إلا مواجهة بالحراب .. يجري كل منهما في خط مستقيم – متقابلين – لا

---

(١) يفري: يغطي

(٢) تفحم قلبها: اسود

(٣) الأورق: بلون الرماد

(٤) تخادن: تصادق

(٥) خلقه: الرأس والجسد

يحيدان عنه .. فيرميان حرابهما بكل ما أوتيا من قوة في وقت واحد معلوم لديهما .. تصيب الحراب ما تصيب .. ويبقى للفائز الكلمة العليا .. في البداية لابُدَّ لكلا الطرفين من نزع ما يحملانه على عاتقيهما من دروع وأسلحة .. أما الهيثم فكان يبدو كآلة حربية مدجّجة بالسلاح .. فقد علّق خلفه .. سيفا حادا صنديدا[١] كصاحبه .. وفأسا ضخمة ذات حدين .. ومطرقة لا تقل عنها ضخامة ذات رأسين .. يعينه على ذلك .. عرض منكبيه .. تفتُّل عضلاته[٢].. قوامه الصلب وطوله المعتدل .. ألقى بهم ثم خلع درعه النحاسية التي تميّزه بلونها عن بقية الجند .. وللقادة لون خاص تشترك جميعها في جذع مقوس ينبت من القم[٣] ويمتد على امتداد الرقبة من الخلف يحمي الأعناق من أن تُخطف عند خوض المعركة .. كما أنها كُلّها مقسمة إلى قسمين .. قسم يغطي منطقة الصدر، وآخر البطن .. يفصلهما شريط من المطاط مُخبّأ لا تراه العين يتلوَّن بلون الدرع حسب مرتبة صاحبه .. فتتيح له بذلك درعه حرية الالتفاف وسهولة الحركة فسرعة الانقضاض .. أما الملمس العام لها .. فمن الداخل محشوة ببطانة من مادة خاصة .. تجلب الشعور بالراحة صيفا وشتاءً ومن الخارج .. فهي مكسوَّة بقشور سَمكِّية صغيرة نسبيا ناعمة تملأ معظم الجسد .. فلا تملك سيوف الأعداء، لا سهامهم، إلا أن تنزلق عند نتوءاتها من شدة نعومتها .. ولكل جندي مهما قلَّت رتبته .. درعُه التي خيطت

---

(١) صنديد: صلب

(٢) تفتل عضلاته: قوة

(٣) قم الدرع: فتحه رأسه

خصيصا لأجله حسب تفاصيل جسده وتحمل اسمه .. فلا يختلف اثنان على واحدة إلا نادرا .. وأما الخِوَذ فهي أمر اختياري .. ولذا، فإننا نجد معظم الجند والقادة قد اعتدّوا واقتدوا بأميرهم فلا يرتديها سوى القليل منهم..

تقدم مع كلا الطرفين جندي لحمل عتادهم وترجمان ليتخاطب الاثنان

. صرخ فيه عاليا: أدعى "كياشا" .. القائد العام للجيوش .. الوزير الأول .. صاحب شؤون المملكة ومدبّر أمورها .. أصرع بيدي هذه ألفا وبتلك ألفين وقد قتلت بهما الآلاف .. من ألقابي .. الشمس الحارقة .. قرن العذاب .. العبد القوي ..

. وترجمان الهيثم تتحرك شفاهه سريعا يحاول اللحاق به، وإمساك كلماته ولإلقائها على أذن صاحبه .. حين علا صوت صاحبنا على صوته قائلا:

هيه .. كفاك صراخا .. كفاك عنجهية[١] وغرورا .. ما أنت بالعبد القوي كما تدعي .. ما أنت إلا عبدٌ ذليل لبشر سيفنى .. أما أنا .. فعبدٌ ذليل مُستكينٌ لإله لن يفنى .. فوالله إن الحق لأبلج[٢] وإن الباطل للجلج[٣] وإنها .. (لا تعمى الأبصار ولكن .. تعمى القلوب التي في الصدور)[٤].. ارم وإلا رميت .. لحظات قطب بعدها حاجبيه واستشاط غضبا فشدّ على حربته حتى كاد يعصرها، وكذلك الهثيم .. الذي ابتسم ابتسامة الواثق وهو يقذفها عاليا ثم يمسك بها

---

(١) عنجهية: التكبر والغرور

(٢) أبلج: واضح

(٣) لجلج: يتردد دون أن ينفذ

(٤) مقتبسة من الآية ٤٦ من سورة الحج

بقبضة حديدية لا تنفذ[١].. وبينما استعاد المرافقان مكانيهما بين صفوف الجند التي تترّست[٢] بدروعها خوفا وحذرا تراجع القرينان[٣] إلى مسافة أبعد من المسافة الفاصلة بينهما ثم انطلقا .. يسابقان الريح حتى إذا ما حان الوقت وشَعُرَ به .. أطلق الهيثم قبضته: خذها قوية من يد سلّطها الله على عدوّه فكادت .. أن تصيبه في قلبه لولا أنّه تفادها لتَتْركه راحلةً مع خدش بسيط، بينما .. اخترقت حربته خصلات شعره بين كتفه وعنقه .. فلما أراد أن يلتفت .. سقط على الأرض كجدار صلب كاد أن يتحطم لولا .. بأس أضلاعه إثر دفعة مباغتة من الهيثم بقوَّةِ شقّه الأيمن .. ألقاهُ ثم شدَّ على عضديْه قائلا مبتسما: لِمَ تفاديت حربتي .. قرن العذاب .. أتراك تخاف الموت؟!

دفعه فأبعده ثم حاول أن يشترك معه في عراك آخر بالأيادي غير أنَّ الهيثم .. استطاع أن يلتفّ خلفه بسهولة مستغلا .. نقطة ضعفه البارزة أسفل خصره، فكاد .. أن يدّق عنقه لولا أنه استجاب لإجابته: حسنا .. أستسلم .. هذا ما ورد على لسان الترجمان من كلا الطرفين ..

وما المنافق إلا .. صورة من صور السراب يتلألأ حينا ويختفي سريعا إذ اندفع نحوه .. تارة أخرى فتفاداه سريعا يعينه على ذلك .. خفّة نعليه ومرونة عضلاته .. بطحه بعدها أرضا مُمرّغًا وجهه في التراب مُكتفا كلتا يديه إلى

---

(١) لا تنفذ: لا مجال لأن تفلت من يده

(٢) تترست: احتمت بدروعها

(٣) القرن: البطل المماثل له

الأعلى .. مُسندا قدما على إليته[١] فلا يستطيع النهوض وقدما أخرى .. قريبا من عنقه يحزّ بها عليها .. هاهو يصرخ خوفا وهو يسمع عظام رقبته تئن ألما، هاهو .. يرجوه قائلا: حسنا .. أقتلني ذلك أهون عليّ من أن أعود جنديا صغيرا كسابق عهدي ..

. صمت الهيثم طويلا ثم تركه وعاود أدراجه بعد أن ألقى على مسمعه كلمات كانت في محلّها:

كم أنت مثير للشفقة ..

لم تكن ندّا لي وقد تجرأت على ذلك ..

ولم تكن أهلا للقتال ولن تصبح يوما كذلك ..

عِشْ .. مع ما جلبته لنفسك من ذلٍ ومهانة ..

وأمسك عليك لسانك إلى الأبد ..

فلا تقحم غيرك فيما لاتستطيع أنت ..

لحق به جواده الأكحل الذي .. كان في شأن آخر مُلْتهٍ عن صاحبه يأكل من الفتات المتناثر هنا وهناك غير عابئ بحياته لا بحياة صاحبه ولنقل إنَّه .. كان منشغلا في حاله عن الكل .. سأله ساعده الأيمن ويدعى "زيد" .. شاب في مقتبل عمره .. فطن وذكي .. حليم ومتأن وذاك .. ما يحبُّه الهيثم في الرجل بغض النظر عن قوته: سيدي .. لِمَ أخليت سبيله .. لولا أسرناه فحبسناه عن القتل قليلا ..

---

(١) إليته: مؤخرته

. لاتقلق .. سيُقتل على يد أصغر جندي لدنيا .. فدفاعه مكشوف ونقاط ضعفه كثيرة كما أني .. لم أكُن لأقتل من دعاني لقتله فأقتله مظنة القتل غير ما جئت لأجله .. فألج[١] حينها في دائرة شكٍ لاتنتهي ونفسي في غنى عنها ..

وقد تقدّم قائدهم الجديد ..والذي لا يقل ضخامة ولايبدو أقل غرورا ممَّن سبقه .. يشقّ طريقه بين السطور حتى توسط المقدمة .. بينما تراجع كياشا إلى المكان الذي كان يخشاه ويتحاشاه .. آخر جندي بين الصفوف .. مكشوف الصدر خالي الوثاق لا شيء يمنعه ولا شيء يحميه .. مطأطئ الرأس لا يرفع بصره خاسئا ذليلا يحتقره ويتمتم في أمره كل من رآه ..

كاد قائدهم أن يرفع يده إيذانا لجماعته ببدء القتال لولا أنَّ الهيثم .. كان قد سبقه إلى ذلك بقليل لما كان مقبلا على صحبه .. فانفرجت الصفوف الأمامية .. صفان منها لينطلق من خلفها رِجْل[٢] من الأقزام ترتدي دروع ملونة .. تزدهي بألوان زاهية .. لا تحمل سلاحا ويبدو من وجوهها الضاحكة أنّها .. لا تنوي قتالا تمتطي ظهور بغال تجري سريعا نحو العدو الذي .. ينظر مستغربا متسائلا: مالذي يجري يا ترى .. حتى إذا ما أصبحوا على بعد فرسخ منهم .. انقسم الصف الموازي لصفهم يمنة وشمالا عائدين على امتداد سرعتهم .. وما كادت الفرجة تتسع حتى .. ارتفعت أصواتهم .. رجال تهوي .. نظام يتبعثر .. ذعر ينتشر وصيحات ألم تتعالى .. استعاد الأقزام مواقعهم في الخلف،

---

(١) يلج: يدخل

(٢) رجلا: جماعة

أولئك .. من لم يكونوا سوى .. واجهة لخدعة متقنة وضعها الهيثم ورجاله .. فبينما كانوا منشغلين بهم .. كان قوم آخرون قد اختبئوا خلف صف وحيد في المقدمة ينتظرون لحظة قريبة .. ليقفز كل منهم إلى الوراء خلف أجهزة حديثة .. سهلة الحمل .. متينة الصنع .. دقيقة الإصابة يقذفون منها .. سهاما كالحراب مدببة الرؤوس .. مستوية الأطراف .. صلبة رفيعة القوام بلون التراب فكانت .. تنطلق بمحاذاة أرض مستوية لا تميل ولا ترتفع - قد جرّهم الهيثم إليها جرّا فكان له سبق البدء وفضلُ المكان - فتثير الحصى وتهدم جبال الرمل الصغيرة حتى إذا ما انتهت عند أرجلهم .. ومزقت أديم جلودهم .. حطمت رؤوس أقدامهم ثم صنعت بينها العثرات فالثغرات .. فلما تمكّنوا من الاحتماء جيدا كان نصف قوام جيوش المقدمة .. خمسة آلاف مقاتل قد أصبحوا عاجزين عن الحركة .. فالسهام كانت لا تزال تترى[1] ولم تتوقف إلا بعد أن اختبأوا خلف دروعهم .. فلما كان ذلك وقبل أن يقوموا بأي خطوة أخرى .. وقبل أن يأتيهم الإمداد، أنّا كان .. هطلت عليهم من السماء .. من منجنيقات تمركزت .. على بعدٍ لن يخطر ببال أحدٍ قد رآها من تلك المسافة أنّها .. تستطيع عمل شيء فلا جدوى إذن .. من وجودها غير أنها .. منجنيقات صنعت لذاك السبب ولهذا الخاطر.. حجارة وأشكالٌ من الفولاذ مدببة الأسطح مختلفة الأحجام .. هناك من هُرِس .. من اختلّ توازنه .. حُشِرَ من حُشِرَ أسفل درْعه وأما من تبقى .. فقد هرب مولولا نحو الصفوف الخلفية جريا وراء روحِه، وبهذا .. كان الهيثم قد تفوّق بدهائه وعدد جنده

(١) تترى: تتوالى وتتابع

على عدوه .. فلما كان ذلك التفت إلى صحبه ومن على صهوة جواده .. صاح فيهم عاليا بصوت كالرعد أنصتت له .. رياح الصحراء ورمالها الحارقة وشمسها التي لا ترحم بحرّها الذي لا يقهر:

إنها حياة لا موت بعدها ..

.. الله أكبر..

وهو يشير بيده إلى عدوّه ممسكًا بسيف لا يبخل .. صهل الأكحل معلنا استعداده .. وما لبث أن دكّ الأرض بقدميْه يعدو به فيبدو .. كشهاب قد استغنى بنوره عن أضواء النهار.. قد أحاله ليلا ومن الغيم نجما ومن شمسه قمرا قد استضاء بنوره ولم يكتفِ .. وأصحابه من خلفه يحاولون يائسين اللحاق به تحت سقف من السهام تطلق من أذرعٍ صلبةٍ فتية، أصحابها .. مقعدون عاجزون عددهم بالآلاف - قد ضمّهم الهيثم تحت لوائه فدبّ بفعله في قلوبهم لون الحياة – تدفعهم نحو الأمام أيادٍ .. لا تمل ولا تكل مادام ذلك في سبيل الله .. والمنجنيقات على حالها .. لاتزال تضرب ولكن .. بأكياس مُلئت دمًا هذه المرَّة .. تلطَّخوا بها فأثارت رائحتهم النتنة .. غريزة الجوع الجائرة .. فُتحت للتوّ أقفاص السباع التي .. اخترقت الصفوف لا تبال بهم وذلك بفضل "جبريل الزيات" .. قسيس متدين أُعجب الهيثم بأخلاقه وتديُّنه، فأبى .. إلا أن يدخله في دينه ولم يستسلم إلا بعد أن استسلم لله .. فقد دخل عليه يومًا في عقر داره في الكنيسة وأمام الجميع .. ناقشه، ناظره، فلما انتهى .. قام فقال له .. بذبذبات لامست شغاف[1] قلبه .. فصدّقه:

---

(١) شغاف: الطبقة الخارجية

أخي ما جئت إلا لأجلك ..

لأجيب على تساؤلاتك التي احترت في إجابتها ..

جئت لأضعك حيث الطريق ..

ولك أن تختار.. وقد اختار..

طريقًا جديدا واسما جميلا ومهنة هي .. عشقه وروحه ..

فلما آلت الخلافة إليه .. سعى جبريل إليه بهدية جزاءً له على صنيعه .. زيت عجيب .. عديم اللون ذو رائحة .. تضايق الحيوان ولا تؤذي الإنسان .. فنراهم يتحاشون الاقتراب منهم بل .. هاهم يتجاوزونهم هربا من تلك الرائحة .. يكادون يلحقون به بالهثيم ولكن ..

هيهات هيهات ..

فهو الأكحل ..

وذاك هو الهيثم ..

رجلٌ يفعل ما يقول ..

رجلٌ ..لا يتطير[١] .. بل يرضى ويصبر ويبتسم للقدر..

رجلٌ لا يخشى الردى[٢].. كيف وقد أبصرنا في عيْنيْه ..

لون الوغى[٣]..

---

(٢) يتطير: يتشاءم

(٣) الردى: الموت

(١) الوغى: الحرب

قد ألقى بجثته على عدوه الذي .. لم يجد بُدّا من الهجوم لما كتّف الهيثم يديْه وشلّ حركته .. تراجعت المعبودة إلى الخلف يحميها نفر من جندها المخلصين .. تراقب المعركة عن كثب .. حتى إذا ما شعُرت .. بدنوِّ الهزيمة وشرِّها .. أذنت لفيلة سوداء كالصريم[١] ذات عيون حمراء غاضبة بأن تتحرك نحو الأمام دون سائس يسوسها[٢] فتقدّمت .. تدهس بأقدامها الضخمة كل ما يقع في طريقها من العوالم المختلفة، فكانت .. أشبه بطوفان عظيم لا يرحم غير أنَّ الهيثم .. كان على درايةٍ بأمرهم وقد أعد لهم العدة فتصدى لهم بفصيلة من جيشه تُدعى "الوثابين" .. رجال ضعيفو البنية .. متوسطو القامة .. زرق خضر سود العيون .. يمتازون بسرعتهم بوثبهم العالي .. فلا أحد يستطيع الإمساك بهم .. أن يجاريهم في الركض .. في القفز لا في خفة الحركة ..

نراهم ينتظرون لا يحملون على عاتقهم شيئا يثقل كاهلهم سوى الخفيف الفضفاض من بيض الملابس .. حتى إذا حانت لحظة .. أقبلت فيها فلول الفيلة واقتحمت .. مُمزقة باندفاعها بهوجائها لجام المعركة أطلقوا .. لأرجلهم العنان فكأنّما .. اتخذوا من الريح معبرا لهم، فلا تطأ الأرض أقدامهم لشدة وثبِهم فإذا بلغ أحدهم هدفه فإنّه .. يسلك من بين ساقيْه من خلفه عن يمينه عن شماله ثم .. يدفع بحركة خاطفة بكلتا يديْه .. قرصين قد شاك[٣]

---

(٢) الصريم: الليل الشديد الظلمة

(٣) سائس يسوسها: قائد يقودها

(١) شاك: به شوك

كل منهما ابرا - لا يُستهان بصلابتها لرفيع قوامها، فهي .. تستطيع أن تلج الجلد أيّا كان سمكه دون أن تُخدش أو تُكسر .. بدفعة بسيطة وبشيءٍ من القوة قد .. أُشربت حتى تشبَّعت سائل تخدير مركَّز استخرج استخراجًا من نباتٍ سام – أسفل بطونهم .. ثم صنع صاحبه مثلما صنع فلا يكفي .. لهزّ تلك الجبال العشرة سوى .. أربعة أقراص لكُل واحد منها على الأقل، وأصحابنا .. ضعف ذلك العدد وأكثر بقليل، فإذا انتهى .. عاد كما أتى .. مُحلِّقًا فوق الرؤوس مستغلا .. أكتاف البعض واثبًا .. أعلى دروعهم منزلقًا أسفل أرجلهم نافذًا .. من بين كُلّ العوائق بذات السرعة، بذات .. الحذر والانتباه دون أن يلتفت البتَّة إلى الوراء كَيْ تسلم روحه ذاك .. ما أوصاهم وأمرهم به الهيثم الذي .. لايزال يلوّح بسيف تطايرت لحدَّته الأعناق مبتسمًا في وجه السِّباع تترنَّم في ماء عيْنيْه بهجة الصحراء حتى إذا ما هلك .. نادى على فأس عظيمة يهشِّم بها أضلعا سقيمة .. ألقاها ما أن أسلمت الروح أيقظ من بعدها .. رأسا كبيرة يحطم بها رؤوسا صغيرة لم يغن عن سلامتها .. حديد نحاس أو دعاء وتلك الجبال .. لم تلبث إلا قليلا حتى .. اهتز عرشها لتنهدَّ فوق الرمضاء[٢] ساكنة صامتة دون حراك وهو .. يرى ذلك وأصحابه من حوله .. يسبِّحون يهلِّلون يكبرون ويحمدون الله على ذلك وهو معهم .. بلسانٍ لم ينقطع منذ بدء المعركة التي .. تكاد تنتهي والكفَّة الراجحة لمن؟

.. لجنود الرحمن ..

---

(٢) الرمضاء: الأرض

لم يزل الهيثم يبحث عن قرين له يستحق المبارزة حتى .. وقع بصره عليْه .. على زوج المعبودة المتيَّمة به والهالك في حبِّها القائد الجديد الذي دفعت به بدلا .. من ذاك الأخير حين لم يتماشَ نغم صوته مع لحن الحجارة وهي تتساقط من السماء على رأسه .. دفع بخنجرين قد شُدّا حول ساعديْه برفق نحو الأمام فكانا .. بمحاذاة كفَّيه من الخلف دون أن يؤذياه وكَرَّ عليه يغذ السير[١] إليه بفم مبتسم وبلسان .. مستمتع بذكر الله لم يزل في طريق وعرة .. لا شيء يمنعه ولا شيء يوقفه، وقرينه .. الوسيم الفتي بالمثل كذلك يسعى إليه .. بسيف قد شحذه في وجه عدوه لضخامته .. لايبدو أنه يحّد من شدَّة سعيه شيئا حتى إذا ما تراءى[٢] الفريقان .. لوّح ذاك بسيفه كالإعصار فأتاه الهثيم .. من تحته بطعنة حادة أسفل ذقنه إلى قمة رأسه بأسلوب فذ لا يتقنه .. سوى الأبطال، حينها .. سُمعت صيحة كانت أشد على الآذان من صلمها[٣] لقد .. فجعت المعبودة بزوجها .. حبيبها الأبدي .. عرفتهُ ميّزته بالرَّغم من طول المسافة فلقد كانت .. تتبّعه بحدة بصرها .. أحاط الغضب قلبها المتهالك .. جوفها الفاني وعقلها المستكين لحماقتها .. رفع أعوانها أذرعهم عاليا وأطلقوا .. أسهمًا نافذةً نحو الهيثم الذي .. تدحرج إلى الوراء خطوات ثم احتمى بأحدهم كان يقاتل ضد صاحبه .. أمسك به من الخلف على حين غرة ثم جرّه سريعا ودفع به أمام وجهه، ومع ذلك فهو .. لم يسلم من

---

(١) يغذ السير: يسرع

(٢) تراءى: تقابل

(٣) صلم: قطع

خدش أو خدشين ولقد تراجع إلى الخلف قليلا حتى أصبح خارج نطاق سيطرتهم فنادى على صاحبه الذي أعانه فألقى إليه .. كنانته[١] وقوسا سقط في يده .. أخرج الهيثم سهما وأسكنه حيث يجب ثم وتر[٢] قوسه نحوها نحو المعبودة التي .. تعاظم غضبها واستعر حين .. لم يفلح أعوانها في قتله وما لبثت .. أن تمتمت بكلمات انتفضت لها رمال الصحراء حتى ارتفعت فامتلأت وتشكّلت جيوشًا .. من ذئاب رملية أنيابها حادة سوداء عطِشة ذات نظرات جوفاء .. ارتجفت لذلك المرأى النفوس .. فلقد عبّرت المعبودة بذلك عن مقدرتها .. هرب رجال وظلّ بعضهم واقفا دون حراك وهو يراهم .. مقبلين يتقدمون دون هوادة بينما .. شخصت عينا الأكحل للحظة فلما .. وجد صاحبه واقفا كالطود[٣] العظيم .. رابط الجأش .. عاقد العزيمة .. عاد يرعى غير آبه لما هو آت .. مطمئن على عكس قادة وجند لبثوا في أماكنهم احترامًا لشجاعة قائدهم بالرغم من أنَّ قلوبهم .. كادت أن تغادرهم هربًا لشدَّة فزعهم .. غطّت تلك الكثبان الطريق في وجه الهيثم الذي .. لم يكن قد تحرك مذ أشار إليها بسهمه ومع ذلك .. فلقد ارتبك وتردّد فلربما قد مال قليلا غير أنه انتهى .. إلى التوكل على الله ليرى اليقين جليّا واضحا بطمأنينة سكنت داخله .. شدّ ساعديْه ثم أرخى ذراعه فأطلق سهمًا .. كشعاع الشمس تشعر

---

(١) كنانة: كيس السهام

(٢) وتر: شدَّ

(٣) الطود: الجبل

به ويفلت من بين يديْك وقد أفلته ساعد لايفتر[١].. رمى به بقوة مخترقا باب الصمت محطّما جدار الصوت مثيرا الغبار من حوله .. رمال ليست سوى خيالات بشر وتمتمات .. أنّا لها أن تتم .. ستهدُّ كالبنيان في وجه كلمات الرحمن .. فشجّ أنفها وجزءا من فكِّها ليحلِّق من بعدها .. سهمنا حُرًّا طليقًا كالطَّير إلى .. مالانهاية نحو السماء بلا نهاية .. شخص بصرها واستطار دمها[٢] وتأوّهت .. بكلمة شوق أخيرة لمحبوبها ثم .. تهالكت من فوق جوادها .. قد غاصت سماؤها وانحسرت بلا رجعةٍ .. مياه أرضها فوق جثة هامدة تنظر إلى المجهول الذي .. لا نراه ..

نفض الهيثم الغبار عن جسده ثم اعتلى .. صهوة حصانه وسار إليها لينزل من عليائه إليها ..

فلما رآها .. فارقت الحياة ..

أسدل جفنيها ثم قام مكبرا ..

فكبّر أصحابه ..

أُسر من أُسر..

وقُتل من قُتل وكان للهيثم وجنده ..

الكلمة العليا ..

---

(١) يفتر: يلين

(٢) استطاردمها: انتشر

الفصل الثاني

بعد راحة لأيام ووريت فيها الثرى على جثث الشهداء .. وكوفئ فيها الجنود الأشداء .. وشكلت خلالها لجان عدّة .. منها لرعاية الأسرى، ومنها .. لتوزيع الغنائم وأخرى لمنح الإجازات وغيرها الكثير.. قام الهيثم كعادتِه دومًا .. بجولة تفقدية للاطمئنان على أحوال القرى التي حُرّرت وطُهّرت من براثن الأعداء .. وبينما هم كذلك .. قد ولجوا طريقًا ضيقة مُلتفَّة إذ .. بصيحات ألم تتصاعد من خلف جدار من الطين مرمرم، تجبرك .. على الوقوف والاستماع إليها وترجو المساعدة .. أمر زيدا بإكمال الطريق مع عدد من الجند بينما .. انعطف هو بصحبة البقيَّة لوضع حَدٍّ لتلك الصيحات التي انقطعت .. حين طُرق الباب ثم فُتح ليبرز من خلفه رجل في الأربعين من عمره .. قد بان الشيب في شعره قد اكفهر وجهه[1] واشمأز بدنه من رائحة ملبسه .. ما لبث أن انتقع مُحيّاه العَبِسُ البائس بمشاعر .. من الخوف والفزع امتلأت بهما أدق تفاصيل وجهه اللّعين لما رأى الهيثم وجنده واقفين على بابه .. لا تسفر أمائرهم[2] عن شيء من الرضا أو ابتسامة .. على الأقلِّ تُرضي الخواطر .. سحب الهيثم السوط من يده بشدَّة وولج إلى الداخل دون أن ينتظر منه إذنًا

(١) اكفهر وجهه: عبس

(٢) أمائر: سمات أو علامات مميزة

إلى العبد الأسود هناك .. ذا الملابس الرثة والتي .. قطّعتها قطعًا ضربات متوحشة من يد آثمةٍ ظالمة لا تعرف الرحمة ..

. سأله وهو لايزال يئنّ عن سبب كل ذلك، فأجابه: لقد غادره اليوم زوجته وأولاده، وقد كنت أنا .. حامل ذلك الخبر السيئ إليه .. فلم يتمالك نفسه ..

. عذر أقبح من ذنب ولم ينطق الهيثم بكلمةٍ بعدها اللهم إلا .. أمرًا نافذًا إلى رجاله فشدوه بين ساريتين، وإليه .. أتاهُ غاضبًا بشرر يستعر وبسوطِه وبقوَّةٍ .. جعل يجلده الجلدة تِلْوَ أخرى وهو .. يصرخ ألمًا يبكي دمًا ولا مجيب لنداءاته، والهيثم .. عن ذلك في حال يزيد المكيال دون حدٍّ أو معيار، لم يمنعه .. لم يوقفهُ سواه حين قال: سيدي أرجوك كفى .. فليس لي سيِّدٌ سِواه ..

. التفت إليه لايزال غاضبًا: بل أنا سيِّدك الآن ثم رمى إليه .. بين قدميْه كيسا مملوءة ذهبا ثم عاد فسأله: ما اسمك؟

. مستغربا رد عليه: يدعوني سيدي "الغراب" !!

. وهل أنت راض عن اسمك؟

. إن كان الاسم يدل على صاحبه .. فبئس الاسم وبئس المسمى، وإن كان .. المرء بما يصنع فلا ضيْر عندي .. من أن أنادى بالغراب ..

. جلس الهيثم أرضًا مُطأطئ الرأس صامتًا .. تنهَّد عميقًا ثم أردف وكان قد هدأ قليلا: صدقت والله فيما قلت، ولكنك .. تستحق اسما أفضل من هذا، ولذا .. فإني أناديك بـ "يوسف" أجمل خلق الله، وإني .. أعتقك لوجهه ..فاصنع في دنياك ما شئت واتق الله ..

ثم دنا من ذاك الذي لا يُرثى على حاله هامسًا: ما تركتك زوجتك إلا لبخل في يدك وقلبك .. فابسطها كل البسط وإلا .. كنت اليد المسلّطة عليك واللعنة التي .. ستقتحم عليك أحلامك ما حييت .. قال ذلك ثم نهض يهمّ بالخروج بعد أن أمر رجاله باصطحابهم لمداواتهم وقبل ذلك بخطوات .. اندفع يوسف إليه وسأله .. أن يستخدمه في جيشه فكان له ما أراد.

توغل الهيثم بجيشه عميقا إلى الداخل في مسيرة التطهير التي بادر وهمّ بها .. مدن وقرى حُرِّرت واستأصل الشر منها من جذوره استئصالا، ونحن الآن .. في أواسط تلك المرحلة في مدينة تدعى "الجوناء"[1].. مدينة شمسها دافئة مشرقة معظم النهار.. أرضها خضراء يانعة وأغصانها .. تكاد تعانق عنان السماء، وهُوَ .. ومن حوله أصحابه يتسامرون في حديث شيِّق وممتع داخل خيمة نصبت خارج أطراف المدينة، فوق .. إحدى تلك البقع الخضراء حين استأذنه أحد الجند بالدخول قائلا: سيدي لقد غادر السجناء أمكانهم وتركنا من بقي في ذمته حق للعباد اللهم إلا فتاة .. أسيرة حرب .. أبت أن تفعل وقد .. كلّت[2] ألسنتنا ونفدت الحِيَلُ من بين أيدينا لإجبارها على الخروج .. فهلا أتيت معي سيدي فتراك .. فتصدق أنّك أنت، ولعلّها .. تخرج حينها ..

(١) الجوناء: الشمس

(٢) كلّ: تعب

. أتراك استعملت القوة معها؟

. ردّ مضطربا: لا .. لم أفعل فكيف لي أن أعصيك !!

. بارك الله فيك .. ولكن من هي تلك الفتاة؟

. إنها "خولة بنت المعتز" أحد أشراف هذه المدينة وأغنى أغنيائها .. قد سُلب منه ماله كلّه ونُفِيَ .. إلى أرض بعيدة واتخذت ابنته أسيرة لأسباب عديدة .. أوصاهم الهيثم بإحضاره وإكرامِه ثم .. ودّع البقية وغادر إليها بصحبة الجندي الذي سأله .. أثناء الطريق مُتردِدًا: سيدي .. أستحلفك بالله ألا تغضب ..

. ولِمَ قد أفعل؟

. لقد كذبت عليك، فلقد .. كدت أستخدم القوة معها لولا أنها .. زجرتني وصرخت في وجهي ثم أمرتني بالخروج وإلا .. لما كُنت ارتدعت[1] عن أمرها ..

. ضاحكا رد عليه: حسنا فعلت بك ..

. أيعني ذلك بأنك لست غاضبا مني؟

. وهل ستحاول إغضابي مجددا؟

. ويحي إن فعلت ..

. حسنا إذن .. لقد رضيت عنك .. وما كادت أساريره[2] تنبسط حتى انحبست لما أردف قائلا: ولكن يبقى أمر توبتك مع ربك .. فهل أنت فاعل؟

. وإني فاعل والله سيدي .. وقد تبت .. صدقني .. لقد تبت ..

---

(١) ارتدع عن الشيء: انتهى عنه

(٢) أسارير وجهه: ملامحه

. ذلك ليس من شأني .. هيا فلنسرع قبل أن تغيب الشمس فهناك وليمة بانتظاري ..

نزل الهيثم الدرجات إلى حيث سرداب طويل معتم وحقير .. وجعل يمر بجوار الأقفاص شبه الخاوية .. فإذا رأى أحدا سأله عمّا جاء به إلى هنا .. فإن كان مالا .. قضاه ثم أخذ منه تعهدا وأخلى سبيله .. وإن كان قد سفك دما .. عجّل في أمره وأرسل وسطاء بينه وبين أهل القتيل حتى إذا ما انتهى .. كانت معظم السجون قد صفرت[1] من زوّارها وشمس الأصيل[2].. قد أذنت لليلها أن يأتيها من كل جوانبها ..

. سأله قائلا: سيدي .. لِمَ تفعل ذلك؟

. ماذا؟

. عذرا سيدي .. لا ينبغي عليَّ أن أسألك لِمَ بل .. سمعا وطاعة ..

. لا عليك يا عمر .. كُن معي في الحق وكُن عَلَيَّ في الباطل هكذا أُريدك وأرجو مِنك أن تكون .. أما فيما سألت .. فهؤلاء القوم هم رعيتي الآن وسيحاجوني عند ربي، وإنَّ .. من أبسط حقوقهم علي أن أعجّل في إنفاذ أمورهم ما استطعت .. فهل كان جوابي شافيا؟

. شافيا ووافيا سيدي ..

---

(١) صفرت: أصبحت خالية

(٢) شمس الأصيل: بين العصر والمغرب

. ثم صمت وأردف متنهدا: ألم نصل بعد ..

. نكاد نصل .. من هنا ..

نفذوا إلى قبوٍ أسفل ذلك السرداب .. إلى غرفة منعزلة هناك .. وقفا عند بابها ثم أمره بأن يسألها الخروج مرة أخرى .. وما كاد الباب يُفتح وما كاد ضوء السراج ينفذ حتى صرخت فيه: أطفئ النور في يدك واخرج حالا ..

. التفت إليه فأشار إليه فعاد فسألها: سيدتي ألن تخرجي؟

. لست بخارجة .. أغرب عن وجهي ..

. هنا .. وضع الهيثم السراج جانبا أمام المدخل وولج إلى الداخل إلى .. مكان عجَّ ودجَّ[1] بوِحشةٍ بكآبة .. لا تبعث في النفس إلا مزيدا منها قد رسمت .. خطوطًا من الألم من العذاب نطقت بها .. تلك الجدران التي اكتست .. نسيجًا من الحزن الشديد قد كتم على أنفاسها فلاذت بالصمت مرغمةً فعبّرت عن أحاسيسها .. فتاة تستند قرب زاوية قد توشّحت .. بوشاح من الظلمة عتّم على محيّاها .. تنظر إلى القادم نحوها بتأفُّفٍ قائلة بشفاه قد جفّت وتشقّقت: يا هذا .. بأي لغة تريدني أن أتحدث .. أخرج .. ألم يصلك مقصدي أخرج .. لقد تعبت ومللت حقا من الصراخ، فهلا .. تعطَّفت عَلَيَّ وتركتني في حالي .. قالتها وهي تلقي برأسها برفق على الحائط خلفها ..

---

(١) عج ودج: أي امتلأ بها وساربتثاقل

. السلام عليكم .. قطَّبت حاجبيْها مستغربة إلا أنَّها لم تُجبه فأكمل: أدعى الهيثم أمير هذه البلاد التي .. حرّرت بفضل من الله من أولئك الذين .. (جاسوا[١] فيها وأكثروا فيها الفساد)[٢] ..

. هيه .. هل أبدو لك ساذجة؟ ولم تكن قد رأته من قبل؟

. عفوا ..

. وبحدَّةِ صوتٍ أخذت تتعالى مع كُل كلمة تلقيها: اذهب وقل لزعيمك المعتوه بأنَّه .. ما من شعرة ستُنزع من جسدي وفي جوفي .. أنفاسٌ لاتزال متمسكة بالحياة فليتركني وشأني .. هذا وإن لم يفعل .. فدمه مسفوك لا محالة .. وهو أهون علي من قتل ذبابة ..

. ولكن كيف .. ولا أرى حولك ما يعينك على ذلك؟

. بهذه .. وعلى حين غرَّة منه اندفعت إليه فكادت .. أن تسرق شيئا من خصلات لحيته لولا أنّه تفاداها .. ظلّت جامدة في مكانها ترمقه بنظراتها الحارقة، بأزيز .. جعلت تتلاطم به أنفاسها المضطربة وذلك النور .. لم يكشف لنا إلا .. عن زُرقةٍ ماجت[٣].. تكاد تخبو تكاد تختفي في بياض عيْنيْها .. هَمٌّ دفينٌ .. قد تفلَّتت[٤] له أهدابها ودموعٌ .. قد خدّدت[٥] خدين جفّا .. لقلة

---

(١) يجوس: يمضي ويذهب ناشرا الفساد

(٢) مقتبسة من الآية ١٢ من سورة الفجر

(٣) يموج: يتلاطم

(٤) تفلتت أهدابها: تباعدت

(٥) خدّدت: صنعت خدود

زادهما مبسمٌ صغير وأسنانٌ كاللؤلؤ كادت بهما لولا .. أنَّه دفع بنفسه وظل جامدا في مكانه كحالها .. مُبتسمًا: يبدو ألا خوف عليك هنا ثم قفل راجعا وقبل ذلك سألها:

أمن شيء آخر يا أمة الله ..

. أجابته بعد أن استقرت وعادت مكانها: نعم .. أغلق الباب خلفك يا عدو الله ..

أمر الهيثم عمرا بأن يسهر على راحتها وإنفاذ أوامرها أنّا كانت .. ثم خرج مسرعا ليتمكَّن أخيرًا من اللحاق بحاشيته قبل أن تصل إلى قصر "الفراء بن عبّاد" .. صاحب هذه المدينة والذي .. أقام مأدبة ضخمة على شرف الهيثم والنصر الذي حققه وجنده .. فلما أتى وأقبل نفخ صاحب البوق إيذانا بقدومه فلما .. وطأ الأرض بقدميْه أخذ يثني عليه بصوته الجهير بكل ما في جعبته .. من ألقاب و أسماء لم تجد عند الهيثم صدى، إذ قطع عليه ذلك كلّه لما .. ولج إلى الداخل ملقيًا التحية على الحاضرين .. جلس مُتربعًا فاقترب الفراء من جنبه اقتراب الدابِّ لبقايا الطعام وجعل يتحدث معه .. حديثا أقرب إلى الثرثرة والزيف وفارغ الكلام، حتى إذا ما أحس منه ضيقا وانزعاجا نادى .. فوضعت المائدة وهي من كل صنف ما تتمنى، حتى إذا ما همّوا وبدأوا .. نادى مرة أخرى فرُفع الستار فعُزفت من خلفه الآلات فتراقصت على أنغامها .. غانيات[1] يملن بخصورهن اللامعة ويتمايلن برؤوسهن المزينة ..

(١) غانية: المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة

بتيجان من اللؤلؤ والزهور على قرع الطبول وتصفيق الكفوف ويداعبن .. بأبصارهن الحاضرين على ألحان العود وصوت الدفوف .. رفع الهيثم بصره بادًّا النظر[١] فيما يراه فابتسم الفراء ظنّا منه أنّه .. قد حاز على رضاه فسكب له كأسا غير أنَّ الهيثم .. ما لبث أن مجّ[٢] اللقمة من فمه عاقدا جبينه مشدوهًا: ما هذا؟ فأجابه مرتبكا: خمر من أجود أنواع الخمور سيدي ..

. إلهي .. ثم قام واستقام واقفا يصرخ .. بأعلى صوته ونيران غضبه تكاد تحرق من حوله: كفى .. قلت كفى .. ثم دنا من ابن عباد فقبض على مقدمة ثوبه ورفعه إليه عاليًا: يا هذا .. ألا تعلم من نحن .. أم غاب عنك ذلك؟

. سيدي ومولاي عذرا ولكنها .. عادة الملوك ..

. بل عادة النطّع الغنّج[٣] أمثالك .. ويحك أتحل ما حرم الله .. ومن يفعل ذلك فليس له في ذمتي شيء .. ثم ألقى به أرضا قائلا: والله ما أنت إلا بعوضة تمتص دمًا فاسدا غير أنها .. جبلت على ذلك، أما أنت .. فكان لك أن تختار وقد اخترت أن تعصي قاتلك الله .. كان لك في الأولين عبرة وشئت أن تكون منهم وإليهم فعد إليهم .. ولينفعك قولهم فلن يمنعك ذلك مني .. أمر جنده بعدها .. أن يسحبوه ويسكنوه سجنا حقيرا حتى ينظر في أمره ثم أمرهم .. بأن يطهّروا المكان بأكملِه .. من جُلِّ روائح الفاحشة والسوء التي غمرته .. وتوزيع الطعام على المحتاجين وإيداع الراقصات ومن تبقى .. مراكز الدعوة والإرشاد

---

(١) بد النظرإليه: مده إليه مدا

(٢) مجّ: قذف

(٣) النطّع الغنّج: المغالين في الحديث المدللين

علّهم .. يهتدوا فينيبوا إلى بارئهم ويعودا إليه .. وفي النهاية وبنفسٍ قانطة .. دعا أصحابه قائلا:

هلّموا فلنخرج .. فلم أعد بعد قادرًا على التَّنفس ..

عاد الهيثم بعد أسبوع من استكماله لعملية التطهير التي لم تنته بعد إلى الجوناء مرة أخرى .. لإنهاء بعض الأمور العالقة هناك .. وفي الخيمة ذاتها استقبل عددًا من المظالم التي .. هداه الله إلى كشف الظلم عنها ونصر مظلوميها، كما استقبل أيضًا .. سفراء لبعض البلدان أتوا .. لتقديم العُذر.. الشُّكر أو المال حتى إذا ما انتهى .. دلفت[1] عليه زوجة الفراء بن عبّاد .. امرأة في الثلاثينات من عمرها .. محتشمة وذات بلاغة .. تحمل طفلا بين ذراعيها وأربعة ذكور صغار يحيطون بها متشبثين بطرف ثوبها .. سألته برجاء أن يفك قيد زوجها وأن يعفو عنه فليس لها معيل سِواه ليعتذر منها الهيثم على الفور قائلا: بل أنا من يسألك العذر والسماح سيدتي .. فلقد طاش عقلي وأعماني غضبي عن رؤية زوجه وولده، ثم أمر الكاتب فكتب:

من الهيثم عبد الله وليُّ أمره وأمير البلاد إلى زيد حاكم الجوناء ووالينا عليها بالإنابة ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

---

(١) دلف: دخل

حين تصلك رسالتي وتقرأ فحواها .. أطلق سراح الفراء وخذ عليه موثقا من الله لا يقطعه ..

أن يتوب إلى الله توبة نصوحا .. وألا يعود مُطلقًا إلى ما فعل ..

وأملي عليه عهدا لا ينقضه ..

حفظ القرآن كاملا مرتلا في ثلاثة شهور ..

والصلاة في وقتها ما دامت لي الحياة .. إلا لعلة لا يد له فيها ..

يسير إليها سيرا من بيت يستأجره يكفيه ويكفي عياله ..

من عمل اسعى له في البحث عنه ..

ثم قل له على لسان صاحبك:

"لقد شفعت لك عندي زوجتك .. وإني والله لأراها امرأة صالحة .. فأحسن عشرتها وكن لها .. الزوج المحب .. ولأبنائك الأب الصالح .. ولربك العبد المنيب .. ولي معك شأن آخر.. إن بدر منك ما يعيب" ..

هذا .. وبالله التوفيق ..

فما خرجت من عنده ذلك اليوم .. إلا راضية ..

ومازال في خيمته تلك حتى دخل عليه عمر يكاد يلتقط أنفاسه: سيدي لقد قلت له إنّك تطلبه فأجابني: من أرادني بحاجة فلْيَسْعَ إليَّ بها .. فقلت ويحك إنَّه الملك .. فأجابني: كيف نكون ملوكا وقد .. ملك الله علينا أرواحنا وهو خالقنا وإليه مردّنا؟! ارجع إليه فقل له ما قلت ولا تخش علي إن كنت فاعلا .. سيدي ..كيف يجرؤ .. مُرْني فأدّق عنقه ..

. بشَّ في وجهه ناداه بعدها وأجلسه قريبا منه ثم سأله والمغزى من سؤاله هنا .. العظة لا الإجابة: عمر.. أجبني وتمهَّل قبل أن تفعل .. إن أحاط

بك العدو من كل جهة .. فما أنت فاعل؟ صمت لحظة ليجيب: ألقي بنفسي عليه فإما .. هالكٌ أو مُهلك ..

. وما الحكمة من فِعلك هذا؟

. سيدي .. إنه التصرف الوحيد اللائق لموقف كهذا ..

. ألديك والدْين يا عمر.. زوجةٌ وأبناء أو رُبَّما .. أحبابٌ تحبُّهم؟

. نعم ..

. إذن .. فقد كان تصرُّفًا أحمقَ ذاك الذي اتَّخذته .. كان عليْك الاستسلام ..

. لست جبانًا سيدي .. قالها ناهضًا بعزَّةٍ وعنفوان .. فشدَّ على كتفه وأقعده ثانية بقوَّة باشًّا في وجهه: أعلم، ولكن .. ذاك ليس جُبنًا بل تلك حكمة .. فقد يمنحك الاستسلام .. الفرصة للعودة مجددا إلى أحبابك فكما .. لديهم حقٌّ لك، فلك حقٌّ عليهم أليس كذلك؟ لم يُجبه بل ظلَّ صامتًا يستمع إليه فأكمل: ما الحكمة يا عمر إلا .. صمتٌ للحظات وتفكيرٌ بثبات فحسنُ تصرف .. الحكمة يا عمر.. شجرة ظلها لا يمضي ولا ينقطع .. السير تحت كنفها أشبه بسني عمرك التي .. ستنتهي يوما .. وبقع الضوء النافذة عبر أغصانها المورقة هي .. تلك اللحظات التي .. أمعنا فيها التفكير وأحسنا فيها التصرف .. فإذا قيل للواحد منا أنت حكيم .. أنزلنا رؤوسنا وقلنا بتواضع: لا نزال في هذا على حداثة نستمد حكمتنا من الحكيم العليم .. حتى إذا ما أسندنا ظهورنا على جذعها لنرتاح .. كان ذاك هو مثوانا الأخير ..

خذ القول يا عمر .. وقلّبه في رأسك كيفما تشاء ثم أجب .. حتى لا تندم أو تكون نديم[١] طيشك ما حييت ..

. بطرفٍ يرنو منه وإليه وبأذنٍ لاتزال صاغية .. اعترف نادما بخجل: إن الطريق بيننا سيدي طويلة .. ولا سبيل لي بالوصول إليك ..

. وما أنا بأحسن منك .. كلّنا خطاؤون وخير الخطائين التوابون ..

. أحسنت القول سيدي ..

. وأحسنت الاستماع يا عمر، ثم أتَّم حديثه مذكِّرًا إيّاه مُوجِّهًا: اجعل لروحك في جسدك سكنًا ولا تطردها فتغدو .. كالذي تركه فارغا .. همُّه ملء كرشه ونفخ ساعده .. قالها وهو يشير إليهما ..

. مبتسما: وإنَّ ذلك لأمر خطير..

. بل هو أمر جلل .. لا أتخيل نفسي يوما بكرش يدفعني نحو الأمام أو يجرني إلى الخلف ..

. ومع ذلك ستبقى سيدي ومولاي ..

. بل كلنا إخوة في الله ياعمر .. وإني أحبك في الله .. وهو يضع كفَّه على كفِّه ..

. باستحياء ردّ قائلا: أحبّك الله الذي أحببتني فيه ..

. تقاسم معه سواكًا كان قد تناوله ثم ضرب على كفِّه برفق مردفا: والآن .. هيا قُمْ فلنصل العصر جماعة .. تذهب بعدها برسالتي هذه إلى زوجتي تعلمها بموعد عودتي ..

---

(١) نديم: رفيق

. وماذا عن المعتز وابنته ..

. سأذهب إليهما بإذن الله حالما أنتهي .. فهو رجل يستحق حقا من يسعى إليه ..

. إني مدين له باعتذار..

. بل كُلُّنا كذلك فلما انقضت الصلاة .. انطلق مُسرعا إلا أنَّه عاد بذات السرعة سائلا: أهُوَ رجلٌ حكيم؟ . من؟ . المعتز.. . بل هو رجل تملؤه الحكمة .. هيا اذهب حالا وكن حكيما يا عمر.. نهره ضاحكا .. غادر الاثنان بعدها .. عمر إلى حيث وجهه مولاه .. بينما سار الهيثم إلى حيث خولة وأبيها الذي .. أبى أن يتركها وحيدة في سجنها حين رفضت المغادرة لسبب وحيد .. ألزمها مكانها وحرمها .. لذة الحياة والتمتع بها.

طرق الهيثم الباب طرقا خفيفا واستأذن "المعتز" بكلمة على انفراد .. والمعتز .. شيخ في السبعين من عمره .. تلوح على وجهه بشائر الخير حين يبتسم وفي مقلتيْه .. إمارات الحكمة والبلوغ .. وفي خطوط وجهه الدقيقة سنين من الخبرة والكفاح لم تزل ..

. ألقى التَّحية عليه ثم اعتذر منه عما بدر منه ومن صاحبه ثم سأله فأجابه .. بنفس راضية بأنفاس واهية: نعم .. فهي لاتزال متشبثة برأيها وقد .. كللت ومللت حتى احترت في أمرها ..

. أمن سبب يدفعها إلى ذلك؟

. تنهد وهو ينظر إليها .. مستلقيةً مُسدلةً جفنيْها تنتظر لحظة تغادر فيها هذه الدنيا بحلوها ومرِّها ثم التفت إليه: إنها تخشى عَلَيَّ من أن تجلب لِيَ

العار.. فبقاء فتاة في مثل عمرها في مكان كهذا مدة طويلة بعيدة عن الأهل والديار .. سيثير الفتنة حتما وسيجلب الألسنة من حولها .. سيُلاك[١] حينها عرضها وشرفها ولن يكون لها .. مستقر هناك أو دار.. لم يعتد عليها أحد نعم إلا أنَّه .. وكأنما قد اعتدى عليها بنفسه العار.. هو أمر لا تبغيه لي .. فلا تبغيه لنفسها .. لقد خيَّرتني بين أمرين .. أن أتركها وأرحل أو أن .. أُلقي بها في مكان ناءٍ .. لا تعرف الجن حتى بأمره وأرحل .. ثم أردف وقد .. تحدّرت[٢] على خديه دمعتان حرّاقتان: إن فتاتي تخيِّرني .. بين الموت والموت ولا تريدني .. أن أكون إلى جانبها .. ليس لي سواها وقد غادرتني أمها .. لقد قاسيت مرة ولن .. أقاسي مرتين ثم .. أخذ يبكي فآواه الهيثم إلى كتفه .. قد تأثر بما قيل ورأى .. يفتكر في حاله وحال ابنته وفي موقفه من كل ذلك .. قال بعد أن تركه يفضي إليه بأسارير قلبه التِعب: خذ قسطا من الراحة في الأعلى فأنت لم تفعل مذ أتيت .. ودعني أتحدّث إليها قليلا وأبشر بالخير.. كفكف[٣] دمعه وغادر بينما .. ظل الهيثم صامتا مدة .. مستندا على الحائط خلفه قرب القضبان مكتفا ذراعيه إلى صدره مستغرقًا .. يفكِّر بعمق حينما .. رفع رأسه قائلا بصوت مسموع: ما رأيك إذن بالزواج بي وقد علمت الآن من أكون .. لن يتجرأ أحد على النطق باسمك أو مجرد الهمس به وبدلا من الدار.. سأبني لك قصرا يسعى الكل فيه

---

(١) لاك: مضغ

(٢) تحدّرت: هبطت

(٣) كفكف: مسح

لإرضائك .. إن شئت .. عِشت هناك معزَّزة وإن شئت .. اصطحبتك معي وسكنت إلى جواري معزَّزة فما قولك؟

. لايزال باتتظار إجابتها حتى أجابت .. بصوتها المرهق لم يزل قد تعايشت نغماته مع عذابات المكان حوله ليخرج من جوفها وكأنما .. قد سُلبت منه الروح: أتفعل ذلك .. من باب الشهامة أم الشفقة على ما أظن؟

. بل كليْهما معًا .. لست أشفق عليك بل .. على أبيك ولست .. رجلا كفاية إن لم أكن شهما كفايةً وأنقذك ..

. أبوابٌ .. لا ضير من أن تُطرق .. أن تظل مفتوحة مالم .. ينفذ إليها الندم .. قالتها ساخرة فأرغمها على الإنصات إليه حين قال: أمة الله .. لست ممّن يخلف وعده أو يخون أمانته .. لست كاذبًا أو ممّن يشعر بالندم إلا .. لأمر عصى به الله .. ومع هذا .. لست بأفضل البشر .. مازلت أحبو على قدم وساق أحاول النهوض كلما استطعت هذا .. وقد أوصانا المصطفى بالنساء خيرًا، وذلك باب مفتوح على مصراعيه لكل الأسباب، فاختاري ما شئت إلا أنَّ ذلك .. لن يغيّر من الواقع شيئا إن قبلتِ .. فسأكون لك كما ستكونين لي .. نعم الزوج ونعم الزوجة .. وإن لم أبادلك الحُب فهو الاحترام والاحترام كما أعلم .. سيّد المشاعر كلها ..

. لم تجبه بل .. تنهَّدت عميقا ظلَّت ترمق السَّقف بعدها طويلا حتى غفت فلما استيقظت .. وجدته مُتربِّعا في مكانه عند الحائط قد غفا هو الآخر أيضًا فلما أقبل الفجر .. اقتربت منه ونادته بهدوء ثم .. شدَّت طرف ثوبه حين لم يستيقظ فالتفت إليها فزعا .. انتظرته حتى هدأ فسألته: وماذا عن زوجتك؟

. زوجتي امرأة عاقلة فلاتقلقي بشأنها ..

. صمتت هنيهة لتردف بعدها: حسنا .. لقد قبلت ..

. فأجابها مغتبطًا: إن قبلتِ فانهضي هيّا .. واخرجي من هذا الباب إلى أبيك وبشريه ..

. حاولت النهوض فلم تقدر فأتى لمساعدتها .. خرجت نحو النور ثم استدارت إليه:

ألا تود أن تراني فقد .. لا أروق لك فتتراجع؟

. لن أفعل .. فقد رأيت من جمال أخلاقك ما يكفيني .. ابتسمت خجلا وهي التي لم تفعل منذ مدة وغادرت بصحبته .. تسير بتأنٍ بيسيرٍ من العتاب والتَّمني هاهو .. يفيض ويستفيض وهو ينظر إليها .. إلى الزهراء من خلف حجب الظُلَمِ والذكريات .. تداعب لحيته .. تضمّخها[1] بعطر ذي رائحة فواحة .. فواحة كصورتها التي لم تغب عنه .. يسألها منذ البارحة وبإلحاح شديد أن تغفر له وأن .. تأخذ بأسبابه ثم تغفر له .. ألف مرة أخرى ..

جُهّزت العروس وزُيّنت ثم خرجت على هودجها[2] مع موكب الأمير العائد إلى قصره بصحبة زيد بعد أن خلّف مكانه .. المعتز حاكما على الجوناء بأمر من الهيثم نفسه.

---

(١) ضُمخ الشيء بالطيب: دهن

(٢) الهودج: محمل له قبة يوضع على ظهر البعير يحمل النساء

الفصل الثالث

ما إن وصل الهيثم إلى باحة قصره حتى أمرهم .. فأعدّوا الجناح الخاص لعروسه الجديدة ثم رحبّ بالحاضرين، فلما انتهى .. أطلق العنان لحنينه يسوقه إلى جَنّته إلى عروسه الأبدية .. فنراه يقفز الدرجات تلو الدرجات حتى إذا ما رآها .. جالسة على كرسيٍّ بقربها أميمة تلك الدمية ذات السنوات الخمس والتي .. أسرعت إليه تعانقه هدأ حنينه وتبدّل .. لهفة لسماع صوتها والاقتراب منها .. رفعها إليه أعلى كتفيه وتركها .. تثرثر كعادتها بينما .. اقترب العاشق من معشوقته أكثر فأكثر .. فأقبلت إليه وأرخت كفَّيها على صدره لمّا .. أدناها إليه برفق فلا يؤذيها فهي كالزجاج .. رقيقة هشَّة .. كالريشة بيضاء ناعمة .. وفي ذلك الفستان الذي كانت ترتديه .. بدت فاتنة وكأنما .. قد تفتَّحت للتو من زهرة طيبة الشذى رائعة المجتلى[1] .. ابتسمت فابتسمت ثنايا وجنتيها فابتسمت الروح التي تخاطبها فكأنما الشوق طرق .. فَفُتحت له الأبواب كلّها .. طريقا إلى قلبها دون شرط أو قيد .. قبّل جبينها ثم سألها .. يرسل بكلماته أحاسيسه عذبة شفافة فتحلق حرَّة عند ثغرها: كيف حالك؟

. فأجابت وقد سكن الحبيب سواد مقلتيها: أتألم قليلا .. فانحنى إليها ورفعها برفق أكثر إليه فحملها .. بين ذراعيه فأرخت رأسها قريبا من عاتقه

---

(١) رائعة المجتلى: تذهل الأنظار بجمالها

تستمع .. كما يفعل إلى ثرثرة أميمة التي انتهت قائلة: أبي .. هل أروي لك قصة النعاج الثلاث؟

. أجابت الزهراء: آه .. ليس مجددا ..

. ودون أن تنتظر منه ردّا بدأت من جديد .. تروي قصتها بكل حماسة والزهراء تتمتم خلفها بلا صوت كلمة تلو كلمة .. فلقد حفظتها عن ظهر قلب والهيثم يخطو بهما باتزان مبتسما .. ينظر ويستمع إليها حتى ولجوا إلى الداخل .. أرخى الليل سدوله[1] وخولة تنتظر في مخدعها .. مجيئه إليها فهي ليلتها الأولى وعروسه الجديدة ولكنه .. لم يأت .. بزغ الفجر وصاح الديك مؤذنا ومع ذلك .. فهو لم يأت .. فطفقت تبحث له عن أعذار تغلّف فيها .. حجم غضبها ويأسها .. أسدلت بعدها جفنيها ونامت بصعوبة فوق مضطجعٍ وثيرٍ ووسادات تجلب الأحلام وفرش ولحف ناعمة .. تدغدغ الأجفان .. خلدت إلى النوم بكامل زينتها علّه .. يأتي فيكفكف دمعها ويعتذر وقد أقسمت .. أن تقبل اعتذاره أنّا كان .. فقط ..

أقبل عَلي ..

وأيقظني بصوتك ..

فقد اشتقت إليك ..

---

(٢) أرخى الليل سدوله: حل الليل

استيقظ الهيثم باكرا وخرج معرّجا[1] عليها فلما رآها .. مستغرقة في نوم عميق مستلقية على سريرها بكامل زينتها .. أسف لحالها وخجل من نفسه ثم خرج معتذرا .. وعند الظهيرة كانت الأنباء بوجود عروس جديدة في القصر قد ملأت ثناياه ومجمع جوانبه .. وكانت "زبيدة" سيدة وصيفات الزهراء هي من نقلت الخبر إليها ..

. قطبت حاجبيها وأغلقت الكتاب المفتوح بين يديها: كيف .. فالهيثم لم يخبرني ولم يشعرني بشيء !!

. لا أعلم سيدتي .. ثم أردفت .. يدفعها إلى الحديث نثر ما في جعبتها من أخبار ستقتلها كمدا إن لم تفض بها: ويقال أيضا أنها سجنت لمدة طويلة في أحد السراديب الحقيرة وبأنها ..

. هنا قاطعتها الزهراء قائلة: هيا قومي فأعدي لي ثوبا يليق باستقبالها ثم التفتت إلى أميمة ونادتها ..

. سيدتي .. ما أنت فاعلة؟

. أريد أن أُشعر الهيثم بمزيد من الراحة ..

. ولكن كيف سيدتي .. ألا تعلمين من هي؟

. أعلم وأعلم أيضا .. أنَّ لمولاك أسبابه التي دعته ..

. سيدتي ..

. نهرتها بشدَّةٍ: زبيدة .. ما خلت يوما أنك ستعصين لي أمرا .. هيا قومي وكفي عن الثرثرة ثم عادت فنادت أميمة التي .. لم تنته بعد من تصفيف

---

(١) عرج: مر

شعرها بنفسها .. فقامت إليها تعينها وتمنحها شيئا من خبرتها فلما انتهت وتجهَّزت وأُخلِيَ الطريق من الجند .. خرجت تسير إليها بخطوات .. رزينة متئدة[١] أخفت .. حجم التوتر الذي بدأ يعصف جوفها والهواجس التي .. أخذت تقتحم مخيلتها دون قدرة منها .. على كبحها أو تفاديها ..

كيف ستكون؟

وهل ستكون؟

وهل هـي؟

وأسئلة أخرى كثيرة بعدد الخرز الذي يزين رقبتها ..

فهي أمور .. لا تملك المرأة حق التحكم بها كالحبّ والتملّك ..

هي فطرة جُبلنا عليها .. تجري معنا مجرى الدَّم في العروق ..

وسارت في طريق نصف دائرية فوق بلاط من مرمر أبيض لامع .. مصقول ومخلوط .. تكتنفها[٢] جدران دُهنت .. بصبغ ذي لون فاتر يثير الأشجان من حولك .. كلما اقتربت منه .. كلما أشرقت في وسطه بين خافقيْه .. تحفة .. لمحة من ريشة أو شمعة .. ناهيك عن البلابل التي تُحلِّق حُرّة .. تقف فوق كتفك تغرِّد لك بانسجام وقد أقبلت .. ترتدي فستانا فضفاضًا كاشف الأذرع حاسر النحر من الحرير اللامع يعكس لونين في آن واحد .. قد فُصّل تفصيلا على طول قامتها وأدق تفاصيل جسدها .. قد خيط بخيوط

---

(١) متئدة: متزنة هادئة

(٢) تكتنف: تضم

زهرية عطرية وقد طُرزت أطرافه وحواشيه .. بنقوش فارسية أضفت على مظهرها .. مزيدا من الغنج والجمال ..

طُرق الباب فأُذن لها ولبقية حاشيتها فلما رأتها .. مزّت شفتيْها بخفَّة لتتدارك أمرها سريعًا بإشراقة على محيّاها .. عرّفتها بنفسها وبمن معها ثم رحّبت بها في منزلها الجديد .. ردّت خولة الترحيب بأفضل منه، ولقد كانت .. أكثر سعادة بالجلوس معها والتحدث إليها مع استغراب وتساؤل لم تتمكن جيدا من كبح زمامهما .. أما أميمة .. فقد كانت ترقب عن كثب ملامح الضيف الجديد وتدرس تحركاته قريبا من الزهراء التي .. أتاحت لها مكانا بجانبها ..

. أبدت إعجابها قائلة بعد حديث تعارف قصير: لك ابتسامة تطيب لها الخواطر..

. فتورّدت وجنتاها خجلا وأسرّت حديثا في نفسها .. فهي وإن كانت تشترك مع الزهراء في قلة كلامها وطول صمتها فهي تختلف عنها .. في صراحتها المعهودة وإبداء رأيها متى أحست بأنه الأفضل .. أسرّت قائلة: "ولك وجه أخاذ تأسرين به قلب من يراك" إلا أنها .. اكتفت بدلا من ذلك بكلمتين: وأنت أيضا .. لحظاتٌ من الصمت عاثت بينهما لتسألها مرتبكة:

ألست متضايقة من وجودي هنا .. أعني .. كوني الزوجة الأخرى ..

. ضاقت مقلتاها قليلا ثم اتسعتا تمهيدا لإجابة منها .. انحت شيئا ومالت برأسها تستفهم بنظرات دلَّت على ذلك: أوتظنين أنَّ مجيئي اليوم إليك .. لمجرد الفضول وحُبِّ الاستكشاف لا غير؟! إن كان ذلك فقد أخطأتِ .. فلست .. بالتي تفعل ذلك وإن كان شيء منه .. قد داعب مخيلتي لبعض

الوقت فهي .. غرائز المرأة التي لا قدرة لها على التحكم بها .. إنما جئت اليوم لأُشعر الهيثم .. بمزيد من الراحة بأني راضية .. بألا داعي لقلقه .. ثم أردفت .. بانزعاج أخفته فلم يكن هناك حاجة لإظهاره وقد أفلحت بإخفائه .. بتنهيدة لهنيهة[1] وبحركة جانبية: إن ما جرى بينكما والأسباب التي دعتكما .. شأن خاص بكما لا حق لي بالاطلاع عليه، كما أنه .. أمر الله المحتوم فلا أعارضه .. وحِلّ من الحكيم العليم فلا أمانعه .. وبما أنه اختارك فلابد من أنه مهتم بك .. واهتمامات الهيثم أولى أولوياتي التي .. أُعنى بها وإن كان فيها .. شيء من القسوة عَلَي .. فلا ذنب لك بذلك .. اعتذرت منها ثم حاولت .. شرح ما جرى بينهما لترفض بوجه بشوش .. هذا وذاك مُطمئنة إيّاها: لست متضايقة فابتسمي .. ردّت خولة بشيء من اليأس بان في مخارج حروفها: كيف لي أن أفعل وهو .. لايبدو مهتما كما تقولين .. فعروس جديدة مثلي تترقب ليلتها الأولى وتنتظر.. ها هي لاتزال تنتظر..

. استرخت الزهراء على مقعدها بعد أن اطمأنت .. أنها المختارة المقربة كما كانت إلى قلبه وأجابت: اغفري له والتمسي له عُذرا عن ليلة البارحة .. فهو .. شوقه إلى أهله وصغيرته، كما أني .. لم أكن على علم بوجودك إلا منذ لحظات وإلا .. لكان لي في حديثي معه منحنىً آخر وثقي بما سأقول، فالهيثم .. متى أصبحت جزءا من حياته فلابد من أنه .. قد جعل لك حيزا في قلبه لايشغله سواك ..

. الكلمات عينها أسمعني إياها أثناء الطريق ..

---

(١) هنيهة: لحظة

.وهل سألته عن حجم حيّزك في قلبه؟

.نعم وقد أجابني بأنه سِرٌلن يبوح لي به .. قالتها مُغتاظة ..

. هيه وأنا كذلك .. لم يبُح لي يوما به ولن يفعل مهما حاولتِ فلا تتعبي نفسك معه، غير أنك تستطيعين قياس حجم تلك الرقعة في قلبه بمدى اهتمامه ورعايته لك .. إن للهيثم عادات و .. ولم تكمل .. والتفتت ناحيتها تلك التي كانت تشد ثوبها مرة فمرة منذ مدة .. همست في أذنها همسا فسألتها: إنَّ أميمة ترغب في أن تريك كتاب رسمها فما رأيك؟ قبلت بسرور بالغ بل .. وهاهي تستمع بإنصات شديد إلى أحداث قصتها بل إلى أخرى جديدة تمَّ للتَّو إضافتها لمّا وجدت .. ما يودُّه الكاتب في كل مستمع إليه .. حسن الإصغاء والتدبّر .. فلما انتهت استأذنتها الزهراء بالرحيل فاستأذنتها هي الأخرى .. تسأل بشيء من الفضول يدفعها دفعا:

لقد قلت بأن للهيثم عادات ولم تكملي ..

. آه نعم .. إن للهيثم عادات وطبائع متى أحطت بها .. وجدت طريقك السهلة إلى سعادتك وسعادته .. ثم استطردت قائلة: ابتسمي كلما رآك، وستأسرين قلبه دون أدنى جهد منك .. قالت ذلك تريد منحها مزيدا من الطمأنينة، ولكنها .. أخطأت في ظنها، فهي ما إن نثرت كلماتها تلك حتى ازداد قلقها واضطربت، إذ تداخلت هواجس خوفها بأسئلتها التي تكاثرت دون حدّ أو كم لتصنع حاجزا ثقيلا من أوهام بحجم الفراغ لا تتبدد، صدّت كل إمداد من العقل حاول كسر الشك باليقين ليعود .. متخاذلا صغيرا يحمل عرش وهمها المتربع الجاثم فوقه لا يبالي ..

"ابتسمي كلما .. رآك وستأسرين قلبه دون أدنى جهد منك"

ابتسمت في وجه مرآة كانت في طريق عودتها فلم تجد شيئا من الخفة والروعة التي رأتها، وإن كانت ابتسامتها لتعقد الألسنة عن وصفها لجمالها غير أنها .. لم ترذلك ..

تكدر خاطرها .. ويحي ماذا صنعت؟

وارتبكت .. بل ماذا فعلت؟

واستيقظ خافقها يجري سريعا متوجعا يلوم قائلا: أهذا كلام يقال ؟!

وما عتّمت[1] أن ألبست وهمها تاجا وأسقته كأس يقين من صنعها ..

حتما ستأسر قلبه ..

حتما ستأسر قلبك ..

مشت بتثاقلٍ .. بِهَمٍّ يتثاقل شيئًا فشيئا .. تجرّ ساقيها جرّا بأمر من أميمة التي كانت .. تستعجلها تريد العودة سريعا إلى ما كانت تصنع قبل زيارتها .. إلا أنها كانت خطوات توقفت بعدها .. شدّت على مقبض بقربها وما لبثت .. أن جثمت على ساقيْها مع أنّات .. أخذت ترتفع حدّتها شيئا فشيئا .. فثمة ما ينخر أسفل ظهرها .. لحظات أخرى وإذ بها ..

تصرخ عاليًا من شدة الألم صرخة دوّت .. فأيقظت !!

ما إن سمع الهيثم بالخبر حتى .. أقبل هلعا خائفا مضطربا وهو يرى ما لا يَوَدُّ أن يراه .. في وجوه الوصيفات المحتشدات خارج غرفتها، فوَلج إلى

(١) ما عتَّمت: ما لبثت

الداخل عبر الباب المفتوح ليجدها .. مستلقية حاسرة متنها[1] قريبا من الحكيمة المختصة بمداواتها والواقفة .. عند رأسها مكتّفة ذراعيها تنظر إليها كمن هو حائر في أمره .. ما إن رأته حتى نادته، فأسرع واقترب، فشدّت على قبضته تئن وتتوجع وتكتم بأنفاس تجري وبأجفان جفَّ ماء عينيها ..

. مالذي يجري؟

. أجابت الحكيمة، بعد أن أخذت نفسا عميقا عبّر عن حيرتها: انظر سيدي .. وأشارت بسبابتها أسفل ظهرها: هناك جذور سوداء ضيقة وقصيرة جدًّا تنتشر من هنا وتمتد نحو الأعلى ببطء شديد .. انظر .. جعل يتفحّصها جيّدا لتطلب منه بعدها .. وضع كفَّه برفق حيث أشارت: إنها ساخنة .. تلك الجذور تشتعل نارا كلما عَلَت .. إنه شيء لم أر مُطلقا .. مثله في حياتي ..

. ماذا تعنين؟

. عذرا سيدي .. ولكني لا أجد في قاموس خبرتي علاجا لما أراه .. لقد خلت أنَّ ما بها ليس سوى .. آلام ظهر عادية ليس إلا .. ولكن الأمر يبدو جليا أكبر من ذلك .. سيدي .. هنا تنتهي حدود علمي .. يجب أن تعرض مولاتي على حكيم ذي خبرة وافرة .. وأنا أنصح .. بـ "معلا الأكرمي" .. وما كادت تُكمل اسمه حتى صرخت فيها قائلة: لا .. قلت لك لا .. كم مرة علي أن أعيد ما قلت حتى تنصتي .ولكنه حكيم حكماء المدينة ..

. وإن يكن .. فلن أسمح لعين لا ليد رجل غريبة أن تمس شيئا من جسدي ..

---

(١) المتن: الظهر

.ولكن عزيزتي ..

. ماذا .. لن تكون أنت وهي والألم ضدي .. حتما لن أتحمل هذا .. مُرْها بالخروج إن لم يكن في وجودها حاجة، فقد مللت من إلحاحها .. ثم تركت يده وأشاحت بوجهها عنه غاضبة .. خرجت الحكيمة متأففة لا تقل غضبا عنها، وهو غضب ناتج من خوفها عليها .. خرجت بعد أن أومأ إليها الهيثم برأسه معتذرا، وبعد أن أوصته بأن يسقيها كأس أعشاب مهدئة، كانت قد ركنته سابقا فوق المنضدة قريبا منها ما إن يتبدد بخاره .. دنا منها رويدا ثم جلس بقربها ينتظروينظر إليها وإلى ما بها ويستمع إلى أنّات هي أقسى عليه من طعنة في صدره .. أعانها فشربت القليل ثم عادت فاستلقت بأنات .. أخذت تخفّ شيئا فشيئا فللدواء مفعوله الذي أتى فأراح ونفع ..

.كيف حالك؟

.لقد خفّ الألم قليلا ثم أردفت: هلا أعنتني على ارتداء ثوبي، فأنا أشعر بالبرد ..

. فعل وما إن انتهى حتى عادت كما كانت .. لحظات ثم سألها مستغلا هدوءها بسؤال لابد منه: عليه أن يراك .. فأنت بحاجة إليه ..

. بنبرة هادئة وبنظرات ذابلة: لست بحاجة إليه .. ابحث لي عن حكيمة أخرى ..

.ولكن الضرورات تبيح المحظورات ..

.ولكنك لم تبحث بعد .. متى بدأت ولم تجد .. حينها سأقبل مرغمة ..

.لا تكوني عنيدة هكذا ..

. بل أنت هو العنيد .. لم تكمل فقد داعبها النعاس حتى غلبها فاستسلمت له ليستسلم الهيثم مؤقتًا لها .. صمت .. فهي في حاجة له.

استيقظت الزهراء بعد ساعات وبعد أن حلّ الليل .. بأسراره المعلنة وأستاره المخفية استيقظت .. لتجد الهيثم يصلي فرض العشاء يرتّل القرآن بصوت خافت عذب وجميل .. انتظرته .. حتى إذا ما انتهى رفع بصره الخاشع الذليل إلى الأعلى يرسل به إلى السماء رسائل رجاء ترجو بقلب مبتور ولسان ينوح، ثم ألقى به موضع سجوده يتفكر .. حزينا كاسف البال مُحدقا باستغراقٍ في المجهول الذي لا يراه، يكاد يغرق فيه .. كان في همّه مشغولا هكذا حينما .. نادته فالتفت إليها ثم أقبل مسرعا نحوها فطمأنته فهدأ قليلا .. فهي لم تعد تشعر بالألم ربما .. أنَّ تلك الجذور قد اختفت ولكنها .. لم تفعل بل توقفت عن النمو فارتعبت وقد .. لاحظ الهيثم ذلك وإن حاولت جاهدة إخفاءه: لابد له من أن يراك .. فحتى نجد حكيمة أخرى ذلك وقت طويل .. لابد له من أن يراك ..

. أجابت وقد بدت متماسكة: إنه قضاء الله وقدره .. فلن أكون قانطة .. (سأنتظر وسيجعل لي ربي مخرجا)[1] وأردفت .. تُحاكيه بذبذبات ذات رنين

(١) مقتبسة من الآية ٢ من سورة الطلاق

خاص وهي تمسح بخفة على كفِّه: عزيزي سأغدو بخير فلاتقلق .. عليك أن تتكبد عناء البحث عنها ليس إلا .. فلا تفكر بي أكثر..

. كان لذلك الرنين أن يجعله يهدأ إلا أنَّه .. لم يهتم ولم يفعل بل عاد .. فسألها ثانية في محاولة يائسة منه لتقبل: إذن فافعلي ذلك لأجلي ..

. تنهَّدت ثُمَّ صمتت ثُمَّ شدَّت .. طرف حبل مُذهَّب ذي نهايات معكوفة وحزام .. من البلور المجوف الملون وأجابت بصوت يكابر قد ثئد[1] همّا وبابتسامة خفية تعتصر غمّا وبنظرات مسجّاة[2] .. أخفت كل ذلك: لأجلك .. يجب أن تذهب إليها ..

. إليها ..

. نعم إليها .. عروسك الجديدة تلك التي .. تكاد تمل وهي تبحث لك عن أعذار منذ البارحة .. قد أتتني مُذ علمت بمصابي وقد جلست بقربي تُطمئنني ترعاني ولم تخرج .. إلا قبل لحظات من مجيئك فهي .. لم ترغب في أن تلتقيك وجها لوجه لأسبابها الخاصة بها والتي .. لا شك في صحّتها .. اذهب إليها فهي تستحق أن تقضي الليلة بقربها لا بقربي .. وهنا دخلت زبيدة فأمرتها الزهراء بأن تُعلم كبرى وصيفات جارتها .. بأن تستعد فالهيثم سيأتيها بعد قليل ثم أمرتها .. بالعودة حالما تنتهي لتقضي الليلة بقربها .. خرجت زبيدة تحدّث نفسها: سيدتي .. ما عدّت أعرفك، وأنا التي كنت أظن غير ذلك !!

---

(١) ثئد: ابتل

(٢) مسجّاة: مغطاة

. متعجّبا منها .. ومصرا في آن واحد: لن أذهب إليها .. فأنت بحاجة إلَيْ وأنا أولى الناس برعايتك والاهتمام بك ..

. أجابت متململة تدَّعي النعاس: لست بحاجة إلا إلى مزيد من الراحة ..

وأكملت وهي تستلقي على جانبها الآخر تريد .. أن تجنح[1] بما لم تعد بَعْدُ قادرة على إخفائه بعيدا عنه: اذهب إليها فلا رغبة لي برؤيتك بشقّ مائل .. فبما أنك قد تزوجت .. فلابدّ لك من أن تعدل ..

وفي كل "اذهب" تمنّت لو أنه .. "لا يذهب" فتعود فتقول:

لن أكون تلك المرأة التي التقيتها في الطريق ..

ولكنه سيذهب إليها ..

وإن يكن ..

فللقلوب أبوابها التي تُطرق ..

وللهيثم في قلبه .. باب واحد هو لي ..

ولكنه ذاهب إليها فلا تهتمي ..

لن أهتم ..

حسنا إذن .. فليكن ..

وقد كان ما لم يكن .. فالزهراء ستظل مشغولة البال حتى عودته إليها ..

وكذلك نحن النساء ..

ندعي القوة .. حين يُسلب منا الحُب !!

فنقول حينها .. وإن يكن ..

---

(١) تجنح: تحلق وتبتعد

فيكون حينها .. مالم يكن !!
صمت الهيثم طويلا وانتظر للحظات أخرى .. ثم خرج إليها ..

جُهّزت خولة سريعا .. عُطِّرت زُيِّنت وسُرِّح شعرها وارتدت أجمل أثوابها حتى إذا ما استقرت وسط مهدها وغادرتها وصيفاتها أتت الحوريات .. عقيلات[1] الجمال يتحلّقن[2] من حولها يتدافعن لرؤيتها يتهامسن فيما بينهن:

. إنها هي ..
. حتما هي ..
. من سرقت الأنظار من حولنا ..
. انظرن إليها كيف تبدو ك ..
. كالنجم يسطع وحيدا في الظلمة الحالكة ..
. لا تصله الأيادي إلا ..
. من أنس بقربه .. يطرب لـ ..
. همسه ..
. لهسيس صوته ..
. لجمال وجهه ..
. وعذوبة مبسمه ..
. فلنقترب أكثر ..

---

(١) عقيلات الجمال: نساءه

(٢) يتحلقن: يجسلن على شكل حلقات

. إنها تتنفس بشدة ..

. وقلبها يخفق يجري على عجل ..

. إنها تنتظر أحدا ..

. آآآه .. لقد وقعت في الحُب ..

. أخ .. مصيدة العشاق ..

. ليتني أقع أيضا ..

. لن أكون ضحية لذلك الوحش المرعب ..

. إنه شعور رائع ..

. بل هو شعور مخيف ..

. اسمعن .. إنها وقع خطواته أَسْرِعْن وما لبثن .. أن رحلن مودِّعات بقبلات ترفرف .. ما إن ولج إليها .. لايبدو من هالتِه أنه قد رأى شيئا مما رأينه .. فهي لحظات من الخجل انقلبت رأسا على عقب حين نزع قميصه وألقى .. بجثته عليها يريد الانتهاء سريعا ومنحها في الوقت نفسه ما تريد .. تفاجأت به ثم حاولت جاهدة .. وحاولت بحجم خوفها والذعر الذي انتابها والغضب الذي سيطر عليها أن تدفعه عنها ففعلت وهي تنهره قائلة: ابتعد.. ابتعد..

. ابتعد جانبا ثم سألها مستغربا قانطا: ما بالك؟

. أجابت وهي تستر ما بدا منها بتلك اللهجة الغاضبة، قد تتأجّجت[1] غضبا وحزنا وخيبة أمل لم تكن متوقعة .. حدّدت مسار حديثها فيما تبقى من حوار دار بينهما تلك الليلة: ليس هذا ما اتفقنا عليه .. فأنا لم أتزوّج زير نساء

(١) تتأجّجت النار: ازدادت اشتعالا

يسعى خلف رغباته .. ولست بعاهرة ستقبض أجرا إرضاءً لملذاته .. إنما تزوجت رجلا آمنت بأنه يعلم بأن المرأة .. روح قبل أن تكون جسدا .. لا تُملك بالقوة ولا باللامبالاة .. إنما بلين المعاملة وطيب الحديث والاحترام الذي تحدثنا مسبقا عنه، ذاك الذي لا أرى شيئا منه الآن .. أتراني أخطأت في ظني .. ويلي إن فعلت .. قالتها وهي تنشج[1] بالبكاء .. تقاطرت الدموع من عينيها فأ لقت رأسها فوق الوسادة واسترسلت بالبكاء .. حاول الهيثم تهدئتها معتذرا بعد أن شعر بفداحة ما صنع .. ولكن دون جدوى، فهي تصدّه وتمنعه من أن يقترب وترفض النظر إليه .. هنا انزوى بخجله بجُلِّ ندمه عنها إلى بقعة بجوارها متكئا بذراعيه على فخذيه، محتضنا كلا كفَّيه .. مردفا بعد أن هدأت قليلا: أردت أن أكون عادلا ولكني أخطأت .. كنت أريد منحك ما تريدين والعودة إليها فهي تتألم وإن أخفت ذلك .. ولكنني أخطأت .. خولة .. لقد صدقت .. ليس هذا أنا وليس هذا ما تستحقين ثم التفت إليها ومدّ يده إليها فصدّته برفق هذه المرة .. ارتدى قميصه وخرج من عندها بعد أن وعدها .. بليلة أخرى أفضل من هذه.

وما نفعُ التجلِّي والودُّ حائـرْ ... من حبيبٍ إلى حبيبٍ في الودِّ حائـــــرْ

قد نزَّ قلبي دمًا لأجل خاطـرْ ..

قد أمطرت عليائي دمًا لأجل حبيب عن طيب خاطـرْ

علَّ الودَّ يأتي بيننا فينهـدْ .. علَّ أعذاري من يدي لا تنفدْ علّني ألقاه فأسعـدْ

(١) تنشج بالبكاء: تردد البكاء في صدره من غير انتحاب

أبيات ردّدتها الليل بطوله .. لم تؤنسها ولم تكفكف دمعها .. كيف والمركب أُشرع ورُفع المرسى إيذانا له .. بأن يعبر النور إلى الظلمات حيث .. اللاعودة ..خرج الهيثم واستند بذراعيه على مقبض الدرج .. لحظات وإذ بأميمة بشعرها المبعثر .. بثوب نومها القصير تخرج هي الأخرى من غرفتها لايبدو أنها ترى شيئا سوى .. سَيْرَ نعليْها إلى غرفة الزهراء .. تسللّت تحت لحافها وغفت بعد أن ضمّتها إلى صدرها .. ابتسم الهيثم وهو مغموم .. وتناست الزهراء أمر همّها لما أحسّت بالدفء .. بينما جلست خولة أمام المرآة .. أزالت زينتها وفكّت شعرها .. تردد الأبيات ذاتها وتعاند صوتا تردّد عدد دمعها .. "اغفري له" ..

أُرسل بطلب "عاتكة ذات البجادين[1]" حكيمة من الجوناء أشارت إليها خولة حين أتت .. في اليوم التالي للاطمئنان عليها أثناء غيابه بالطبع فهي .. لاتزال غاضبة منه .. تستدرك أخطاءها وتتأمّل الطلاق ولا ترتجيه فهي تنتظر.. بأمر من القلب وحده ..

وعاتكة عجوز صهباء[2] في التسعين من عمرها لاتزال بكامل صحتها .. قد خَبِرَت من الحياة ما لن يَخبره الأكرمي، ولو فرش الأرض بعلمه ذهبا والسماء مطرا ثقيلا ينطق بفضله .. وقد لُقِّبت بل بالأحرى لَقّبت نفسها بـ "ذات البجادين" ذلك أنها قد زوّجت نفسها من ذلك الصحابي الجليل "عبد

(١) بجاد: الكساء الغليظ

(٢) صهباء: أن يعلو الشعر حمرة أو شقرة وأصوله سود

الله المزني"[١] والذي توفي منذ زمن بعيد قبل ولادتها .. لقد عشقته بكامل جوارحها وما يليها من أحاسيس ومشاعر فيّاضة .. فعقلها وقلبها قد اتفقا على ذلك فلا يختلفان ..

تزوّجت زوجا لم يعارضها على ذلك .. وأنجبت صبية أحبّوها لذلك .. ولقد كانت تقول دائما:

سَلَّمْتُ سالِمًا سُلَّمًا إلى قَلْبٍ سَلَّمْتُهُ أحَدًا غيره فلا يَلِجُهُ سِواهْ

قد لا مس سالمٌ شِغاف[٢] قلبي فسَلَّمَ بأمري ولن يسلمَ من نارِقلبي سِواهْ

فيجيبها: أيسلمُ القلبُ من نار الهـــوى ... فلم تسلمِ من نارهِ فاستَســـلمتِ

---

(١) عبد الله المزني: يتيم قتل أبواه فرباه عمه الثري وحين سمع بالإسلام أسلم دون أن يرى الرسول ﷺ وكتم إسلامه حتى إذا لم يجد من عمه ميولا واجهه بذلك فحرمه عمه من جود يده وتركه يرحل وليس عليه سوى بجاد يستربه جسده فلما اقترب من يثرب شق بجاده شقين فاتزر بأحدهما وارتدى الآخروبهذا حمل لقبه .. شهد مع الرسول ما شهد من غزوات حتى توفي محموما قبل غزوة تبوك بيوم وليلة تقريبا .. وقد أنزله الرسول الكريم بنفسه وأسكنه في لحده وكان عبد الله بن مسعود واقفا يشهد ذلك كله فقال: "ليتني كنت صاحب هذه الحفرة .. والله ، وددت لو كنت مكانه وقد أسلمت قبله بخمس عشرة سنة".

(٢) شغاف القلب: غلافه

وقد استسلمَ قلبٌ إلى قلبٍ يعلمُ راضيًا أنَّ القلبَ متـــى أحبَّ رضيتُ فسَلِمتِ
سلِّميني سَلامًا من ثنـــايا ناظريْكِ أكتفي بهما سُلَّمًا فأغدو سالمًا ما سَلِمتِ

ولعاتكة عيبان .. قسوتها عند التشخيص .. وادعاؤها الشباب متجاهلة سنَّها.

علمت الزهراء وكذلك خولة بأمر الهيثم فهو .. لم يَبِتْ ليلته عند أيٍّ منهما فاطمأنتا ومع هذا .. فلم تشعر كلتاهما بالراحة التامة فخولة لاتزال في عراك مع قلبها تعانده .. والزهراء تحاول السيطرة عليه تُلاوِنُهُ وتُهادنه .. وأما الهيثم فقد كان كالرَّحاة الدائرة يدور .. فمن أمور الحكم وتبعاته .. إليها يعينها .. والمختّصة بقربها تحاول جاهدة تهدئتها بما منحها الله من علم وقد أفلحت معظم الأوقات .. غير أنها لاتزال عاجزة عن ثبط[1] نموّ تلك الجذور أو علاجها وإلى خولة التي .. هاهي تجري مسرعة وهو من خلفها لا تستمع إليه يناديها لتغلق الباب في وجهه مرّة أخرى .. طرقه مُطولا برجاء حثيث هذه المرة دون فائدة فارتأى أن يتركها تهدأ أكثر ثم يأتيها .. فلعَلَّ، ولَيْتَ لعَلَّ .. تجيبه إلى ما يريد فيعود إليها.

قدمت الوفود ورؤساء الأقاليم للترحيب بالهيثم ومباركته وإطلاعه على آخر المستجدات .. وملء بيت مال المسلمين بالجبايات والزكوات .. وبينما كان كذلك مشغولا بالحديث معهم استأذنه .. رجل رثّ الملابس .. كالح الوجه .. أفطس الأنف[2] بالدخول عليه فأذن له .. جعل يتأمل الوجوه حوله فبدا ..

---

(١) ثبط: إيقاف وإبطال

(٢) أفطس الأنف: من انخفضت قصبة أنفه

كحصاة ألقيت وسط كنز من ياقوت ومرجان .. فالكل قد تهيّأ وارتدى أفضل ما لديه .. فهم في حضرة الهيثم .. أمير البلاد وسيّد أمرها .. سلَّم على الحاضرين بصوت متقطِّع يلهث عطشا ثم تهالك على الأرض من شدّة تعبه فأسرع إليه .. يقتل بذلك شعورا مريضا أغراه بأن يبقى جالسا .. فوق عرشه ينظر إليه من عليائه فلا ينتقده أحد .. لقد دفعه ذلك التواضع الذي عشّش في صدره مستريحا يغدق عليه من طيبه وحنانه وسُمُوِّ أخلاقه .. ألبسه بردته الموشاة وأشربه كأس ماء ثم سأله عمّا جاء به فأجابه .. مفرغا ما في صدره من كلمات أوعزتها[1] الحاجة للخروج فخرجت .. أجاب بعد أن رأى ما رأى من اهتمام الهيثم ورعايته: سيدي .. لست سوى مزارع من قرية "طنب" .. قرية منسية تبعد عن هنا مسافة أربعة أيام سيرا على أقدام حملتني إليك .. هلك الزرع سيدي ونفد الماء والعيال جوعى والأهل في داء .. ونحن من رعيتك .. لا نطمع بعطائك بل .. ممّا أعطاك الله، واذكر حديث رسولنا ﷺ: "أحبّ الناس إلى الله أنفعهم ، وأحب الأعمال إليه عزوجل ... فقاطعه الهيثم مكملا: سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا" وأنت أخ لي قبل أن تكون من رعيتي، ولأكرمنَّك ولأجعلنَّك راضيا حتى ترضى عني .. زال كربه وتوقفَّت عن الهُطل دموعه وأزهر وجهه بحروف .. أثلجت صدره المفعم[2] بالحزن والدعاء .. هنا ولجت أميمة، والتي وإن كانوا بهيأتهم

(١) أوعز: طلب منه أن يفعل أو يترك كذا

(٢) مفعم: مملوء

كالياقوت والمرجان، فقد كانت تلك الدرّة البيضاء[١] التي قلّ نظيرها .. تزدهي ببياضها و تتغنّج[٢] بلمعانها ثم تتوسط الكل .. وقد تُوّج رأسها بتاج من وقار.. استأذنه فسألها فأجابت بأنها كانت على موعد مع الزهراء عصر هذا اليوم لزيارتها في غرفتها لتناول كوب من الشاي مع بعض المقبلات، إلا أنها نائمة وقد منعتها زبيدة من إيقاظها .. أجابته بحسرة ولهفة بأنها قد أعدّت لهذا اليوم العُدَّة واستعدت ثم .. رجته بإلحاح بأنّة صوت تفطر الفؤاد بأن يذهب حالا لإيقاظها .. فاقترح عليها وهو يمسح برفق ماء عينيها أن يكون هو الزائر البديل ..

. ولكنك لا تتقن أحاديث النساء ..

. وهل سيمنعني ذلك من شرب الشاي معك ..

. لا .. سنتحدث في مواضيع أخرى ..

. حسنا إذن .. فلنذهب .. حملها ثم سار بها إلى ذلك المزارع الذي .. قام واقفا ليردَّ مُحنيا رأسه بعد أن سأله الهيثم عن حاجة له أخرى: شكرا لك سيدي وبارك الله فيك ..

. فرفع الهيثم ذقنه قائلا: ارفع رأسك .. (فما أنا إلا عبد أنعم الله عليه من فضله ليَبلوَني .. أأشكر أم أكفر)[٣].. وليس من الشكر أن يركع عباده لي ويحنوا رؤوسهم .. لنتصافح يدا بيد مع ابتسامة ترسم دروبا جديدة للأخوة

---

(١) درة بيضاء: لؤلؤة بيضاء

(٢) الغنج: الدلع

(٣) مقتبسة من الآية ٤٠ من سورة النمل

بيننا .. ثم خطب في الحاضرين مستطردا: أيها القوم .. اجعلوا من أيامكم مشكاة[1] زيتها الماضي دنياها الفانية، وضوءها الساطع، أُخراها الباقية .. ومن ظلم منكم فليعلم .. أن الظلم ظلمات يوم القيامة ولن يسلم .. هذا وقد جعلت الله عليكم شهيدا .. أمر الحاجب بعدها بأن يكرم مثواهم ومثوى ضيفه العزيز ثم .. غادر بصحبة أميمة التي كانت تبدو في غاية السعادة .. تقفز بفرح ومرح طوال الطريق وهي تمسك يده .. كانا قريبيْن منها فاقترح عليها .. دعوة خولة فقبلت راضية مسرورة وأرسلت وصيفتها على الفور .. لتقديم الدعوة لها بينما .. أسرعت هي إلى الداخل قبله تعد متكأ لها .. أمرت الجميع بالمغادرة فلا حاجة لوجودهم في وجود أبيها ثم .. توقفت أمام المرآة تتهيأ قليلا وما كادت .. حتى طرق طارق فوثبت بخفة لفتح الباب .. رحبت بها وألقت التحية عليها لتتفاجأ .. بوجود الهيثم جالسا متربعا على طرف بساط مخطط أخضر اللون قرب صينية فضية، تحوي إبريقا صغيرا وأكوابا بحجم أميمة ومقبلات من تصميمها .. رَدَّ الهيثم التحية بأحسن منها باسم الوجه ثم دعاها للدخول .. وكانت قد تراجعت للحظة غير أنها أكملت طريقها لتجلس في الوسط قريبا منه ومنها الشَّقية من لأجلها .. جلست ولأجلها فقط .. أكملت تلك الزيارة ..

. سكبت أميمة الشاي لهم .. لحظات وإذ بالكل يتفاجأ به .. بالهيثم يبدأ الحديث قائلا متصنعا صوت امرأة نشاز[2] : كيف حالك أميمة؟

---

(١) مشكاة: ما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح

(٢) صوت نشاز: طبقة صوت مزعجة

. لست أميمة بل أم هشام ..

. آآه أم هشام .. هل أنت بخير؟

. فتكركر وهي ترتشف من كوبها: بخير.. وأنت؟

. بخير مادمت بخير عزيزتي .. ثم يلتفت إلى خولة فيربت[1] على كفِّها: وأنت كيف حال زوجك؟

. لم تجبه بل ظلت تنظر إليه مشدوهة[2] متجهمة الوجه[3] فيكمل مردفا: إنه وغد حقير.. لا تغفري له ..

. صمتت لوهلة لتجيب بعدها مبتسمة كحال أميمة وهي تمدّ يدها لتشرب من كوبها: لا تقولي ذلك عنه ..

. هه .. أسمعت ما قالت .. بعد كل ما صنع بها .. كلميها أم هشام انصحيها ..

. أميمة التي لم تتحمل صوت أبيها .. سقطت على الأرض ضاحكة وهو يرى ذلك لايزال يثرثر فوق رأسها: ما بك .. كوني جادة قليلا ولما لم تجبه .. التفت إلى خولة يسألها فلا تجيب هي الأخرى بل .. ظلت هكذا تكركر وهي تستمع له: حسنا إذن .. سأشرب الشاي إلى حين تنتهوا .. رفع كوبه وجعل يتأمله ثم أبدى إعجابه قائلا: يبدو لي من شكله .. أنه شاي لذيذ .. نطق بكلمته الأخيرة تلك بأسلوب جعل كلتيْهما .. تنفجران ضحكا .. وهو على حاله

---

(١) ربّت: ضرب بلين

(٢) مشدوهه: مدهوشة

(٣) متجهمة الوجه: عابسة

غير عابئ بهما يكمل ثرثرته ويرتشف من كوبه لا يبالي: إنه حقا لذيذ .. من أين أتيت به؟

.أجابت بصعوبة: من صنبور الماء ..

انتهت تلك الزيارة المملوءة بالمفاجآت .. بعدد من القبلات الحارة وبعناق خاص من أميمة إلى أبيها ليتوجه بعدها .. بعد أن آواها إلى فراشها إلى الزهراء حيث قضى معظم وقته لديها .. ليغادرها متأخرًا إلى غرفة خولة بعد أن غفت فهي ليلتها .. خرج متأمّلا أن يجد الباب مفتوحا .. فلم يجده كذلك فهي وإن .. ترددّت في فتحه وإن خفّ غضبها قليلا فهي .. لاتزال ترغب بشدّة معاقبته على ما صنع بها .. أخرج الهيثم مفتاحا وتسلّل إلى سريرها وكانت حينها نائمة .. أرخى رأسه على كفّيه وجعل يُعِدُّ الكلمات المناسبة منتظرا .. أن تستيقظ فيناجيها بها فلعلّها تغفر له .. انتظر طويلا حتى إذا ما أحس منها استفاقة .. استلقى على شقّه الأيسر بهدوء يترقب .. حتى ما إذا رأته راقدا بقربها .. قطّبت حاجبيها بضيقٍ مستغربة .. فلما تحركت شفاهها تنطق بكلمة تُعَبِّر عن سُخطها .. قبّلها قبل أن تفعل بلطف ثم ابتعد قيد أنامل[1] منها وسألها .. برقَّة أظهرت شيئا من شاعريته .. أن تسمح له بأن يبقى الليلة هنا .. هدأت ترمقه بإمعان تستمع باستسلام .. إلى أحاديث قلبها العاشق وعقلها المتسلط لايزال يناوشه يجادله ويقض مضجعه .. لحظات وتجيب: ولكني لم أتزين .. فيرد بغزل بهوىً جديد أنساه كلماته وأبدلها .. كلمات أخرى وهو ينظر بافتتان إليها فكأنما يراها وللمرة الأولى: ومن قال إنك

(١) قيد أنامل: مقدار أصابع

بحاجة إلى زينة .. بل هي الزينة من بحاجة إليك ليكتمل نصابها .. فهل يحتاج الأقحوان حين يتفتح وحيدا فوق سفح الجبل إلا لمن ينظر إليه .. وها أنا الآن .. أنظر إليك ..

أحتبي[١] بحَوَرِ عينيك[٢] ..

باحمرار وجنتيك وأناملي ..

تلتمس العذر منك ..

أحاديث غرام بينها وبين ..

محيًّا ينضح[٣] بالكمال .. بينها وبين ..

خصلات شعر تتفتق من بينها أشعة الشمس دافئة تداعب ثغرا يرتجي ثغرا .. طاب له تقبيله ..

قبَّلها أخرى فابتسمت وازدادت خجلا .. فابتسمت روحه وازداد شوقا فدنا فدنت منه أكثر..

ألم يزداد .. فؤاد يتقطع وعيون بدأت تدمع من شدة الوجع .. وغيرة أخذت ترسم حدود دولتها فوق الأفق وتتمادى ليزداد الوجع .. تلك هي الزهراء .. امرأة تكابر على الجرح وتسلّي نفسها قائلة: "سَيُمْضي بعضًا من الوقت لديها وسيعود حتما فجرًا إلَيْ" .. ثم تنتظر وتظل تنتظر فإذا أذَّن المؤذن وأتى ..

---

(١) يحتبي: جلس ضاما فخذيه إلى بطنه بذراعيه ليستند

(٢) عيون حوراء: شديدة سواد (زُرقة) العيون وبياضها

(٣) ينضح: يبتل

هدأت سريرتها وادعت بأنها نائمة وكتمت شدة الألم .. فلا يتفطّر اليأس في قلبه فييأس منها حينها ويرحل ..

أوهام ..

وشباك عنكبوت نسجتها حول نفسها ..

فلو أنها سألت .. ورأت حقًّا ..

لعلمت واكتفت ..

بعد تمام أسبوع كامل من وصول خولة .. وصلت الحكيمة إلى أعتاب القصر حيث استقبلها الهيثم برفقة زيد وزيره الأول .. رحبّ بها غير أنها غضّت البصر عنه سريعا وردّت التحية تتمتم بها ثم سارت .. في الطريق المشار إليه خلفه ببطء شديد، وقد حاولت أن تدَّعي الشباب ما استطاعت .. إلا أنها لم تستطع مطلقا مناطحة سنِّها في معركة خاسرة .. فكانت تطلب كرسيا لترتاح عليه من حين إلى آخر والهيثم على أعصابه .. يعلم بأن الزهراء تنتظر وكذلك هو .. فلما رآها قد جلست أمام الدرج الطويل الموصل إليها وقد أطالت المكوث .. حملها والكرسي وقد كانت أخفّ عليه من حمل سيفه .. اعتذر منها وسألها أن تتمسك جيدا حتى تصل بأمان إلى حيث يريد .. لحظات كالبرق وقد استقرت أمامها قريبا منها عند طرف السرير .. تفاجأ الكُلُّ حتى الزهراء التي ابتسمت لفعله .. أما عاتكة فهي ما إن لبثت مكانها والتقطت أنفاسها حتى أنّبته قائلة: لتكن من كُنت .. فلا حق لك بإثارة الرعب في نفسي هكذا .. لقد سلبت مني حق الاختيار وأجبرتني بأمر السلطان .. وإن

كنت لا تقوى الانتظار.. فما أشدّ علي من طيش الكبار وعناد البهائم ورائحة الغبار.. فاعتذر منها ثانية آسفًا بصدق ثم تركها لترتاح قليلا .. همّت بعدها ببدء تشخيصها لولا أنها .. توقفت هنيهة ثم أمالت رأسها وهمست إليها، فسألته أن يخرج ففعل باستغراب منه راضيا، ظنّا منه بأنها أسباب خاصة بالنساء لا سبب يدعوه للتواجد في وسطها .. وقد كان محقا نوعا ما .. فهي أسباب خاصة ولكن .. ليس بكل النساء بل .. في واحدة منهنّ أجابت بلهجتها الأقرب إلى الأرمانية .. وكأّن حملا ثقيلا قد وضع عن كاهلها:

آآآه الحمد لله .. لقد كاد زوجك أن يفتنني ..

. هيه عاتكة لا أصدق .. وأنت من أنت .. العاشقة ذات البجادين ..

. كما أنني امرأة أحب الجمال .. وأصون نفسي عنه إن كاد يفتنني ..

ومن هنا بدأ حوار قصير وحديث ممتع بين امرأتين .. كأس عطشيهما .. الحب و الغرام !!

. وهل أحببته بهذه السهولة؟

. بل أعجبت به في البداية فقط ..

. وما الإعجاب إلا رمز من رموز الحب .. فالحب لا يستهل إلا به .. بإعجاب فـ.....

. فشوق فلهفة فحلال أو حرام ..

. ذلك تقريبا ما كنت سأقول ..

. وهو كذلك .. فقد صدقت بوصفك له، غير أنَّه .. كحال بقية الرموز الأخرى لاتكفي وحدها .. لصنع ذلك الإحساس اللاذع الدافئ .. فهي لذا .. فانية تختفي ما إن ينتهي الغرض .. أما الحب فليس بحاجة إلى أحد .. فهو

يجدّد ذاته أو الغرض ذاته أو يبحث عن آخر يشدُّ به ركائزه .. فهو يتجدّد ولا يتبدَّل .. نشيب ولا يشيب .. يبقى أبدا ولا ينتهي ولا فرق بينه وبين الهوى سوى أنَّ رحيل الحبيب في الأولى ذكرى جميلة .. وفي الثانية فهو يوقظه من قبره ليُبصره واقفا أمامه .. يتحدث إليه فيردّ عليه .. يناجيه قريبا منه لا بعيدا عنه .. أو أن يرحل معه .. واذكري قصة "خارجة التركماني" .. ذ لك الأعمى الذي أحبّ فتاة لم تعلم يوما بحبّه وهام بها فلما رحلت ظلما .. قتل قاتلها[1] ثم لحق بها ..

. قد أبصرتها في حُلمي حرةً طليقة تلثمني قبلاً برمشٍ سهيـــــدِ
قد كان مني قريبٌ يروي الثـرى وهو مني عن هوايَ بعيـــــدْ
إن تَنظُرإلى الشمس تُحني رأسها ومن ينظرْإلى الشمس غيرأعمى رشيـدْ
قد طَرِبَ الغصنُ لمَّا رآهـــا وتباكى المغيبُ لرحيل صوتٍ غريـدْ
إن كُنتَ وقد كُنتَ فلستُ بمعْجبٍ بل أجدِّدُ العهدَ بقلبٍ سعيـــدْ
فما الحبُّ في واديكَ إلا كمَثـلِ أعمى أبصرَبعد أن كان في الظلامِ وحيـدْ
ثكلني الهوى حتـــى رأيتُ مَقتلَ حبيبٍ في الظلامِ رغيـــدْ
أيُقتلُ الهـــوى في مهدهِ فقد قُتِلَ هوايَ فهوَ شهيـــدْ

---

(١) قتلها زوجها حين علم من أحد الوشاة بأمرحب خارجة لها .. فسمع أبياته فطلبه للقتال فخرج إليه خارجة الذي لم يلبث طويلا فقد صرع سريعا أمامه .. فلما انتهى .. جعل يتباهى أمام الخلق ويتافخروكان من عادته متى انتصر.. لعق دم فريسته من على نصل سيفه .. لحظات من العذاب طالت بعدها بسبب السم الذي .. تجرعه خارجة قبل قليل من قتاله .. ليموت شرميتة وأمام أعين الكل.

ألا يكفيه أن كان معه أن مسَّ يده أن كان بين أحضانهِ وليـــــدْ
ثم يُقتلُ عبثا أَني سمعتُ أنَّه أعمىً أحبَّ فهو شرفي فإني فقيـــــدْ
وإني لقاتلهُ ولأقتُلنَّه قِتْلَةً يُروى بـها ويستحي منها الضبعُ الشريـدْ
ثم لألحقنَّ به ولا أُبالي بدُنًا هي من بعدهِ ظلامٌ أكيدٌ وكربٌ شديـدْ
لَعلّي ألقاهُ يرتعُ في واديـــه علَّه يُبصرني فيغدو كلُّ فداءٍ لأجله زهيدْ

. أحسنت .. ثم صمتت الزهراء طويلا وهي ترمق عاتكة نظرات ملؤها سِرُّ الإفصاح وإفصاح السِرِّ الذي يزاحم عليها تتمة سعادتها .. ودونما أن تلتفت إليها ودون أن تقطع عملها وكأنما قد قرأت أفكارها: أخبريني .. مالذي يجول في خاطرك؟
. إنه متزوج من أخرى ..
. إمم .. وذلك ما يجعل صوتا شجيا كصوتك يبدو ممزوجا بآهات .. بألم يكيل المكيال فوق ألمك ويعيق قدرتك على الشفاء ..
. ذلك أمر ليس بيدي ..
. وذلك حالنا كلنا نحن النساء .. ولكن لاتقلقي .. أراه رجلا صالحا لن يقدم على أمر كهذا إلا لأسباب دعته ..
. وأنا على يقين من ذلك .. ومع هذا .. لست مرتاحة ..
. لِمَ؟
. خوفي من أن يقل اهتمامه بي .. خوفي من أن أجد في عينيه امرأة أخرى سواي
. وهل رأيت ذلك حقا؟
. بغصة وحرقة: لا أعلم .. فأنا أتحاشى النظر في عينيه خشية أن أرى تلك البسمات تعانق ثنايا مقلتيه .. فيستحيل الوهم إلى حقيقة والشك إلى يقين ..

ولا أعلم حينها ماذا سأفعل .. الرحيل ولا قوة لي على البعد عنه .. أم البقاء وليس في بقائي سوى الرغبة في الرحيل ..

. هنا انتهت عاتكة فأجابتها: بنيتي .. كلامك قاس وقد أدمى فؤادي .. فإن تكوني في منأى عن الأسباب .. أن تقاومي تلك الغيرة التي تنهش جسدك المرهق .. وأن ترغمي نفسك على أداء دور الزوجة المطيعة الراضية .. أمر متعب جدًّا وشاق .. ولكنك ستؤجرين عليه بإذن الله .. فاصبري عزيزتي ثم اصطبري[1] وتوكلي على الله، فهناك ما هو أقسى ..

. ماذا تعنين؟

. ابعثي لي بزوجك فقد انتهيت .. (قالتها بلهجة جادة حانية) ..

. حضر الهيثم وجعل يستمع كحال الزهراء بآذان صاغية وبتركيز حاد لتشخيص عاتكة التي تنهدت عميقا ثم تبسملت ثم تحدثت تنطق الكلمات بصعوبة وكأنما تجرُّها جرًّا وتجشّمها[2] عناء الخروج .. فلقد أحبَّتها كثيرا وعزّ عليها أن تتألم أكثر بسببها، ولكنها .. عادة الصراحة بينها وبين مرضاها ولا يحق لها التخلي عنها، ولو كان في الحقيقة شدَّة البلاء أو بَرد الأمل: لقد صادفت حالة كهذه قبل خمسين عاما تقريبا .. استدعيت وكانت المريضة تحتضر .. لم أتمكن حينها من مساعدتها لترحل بعد أيام من مجيئي خنقا بسبب الجذور التي .. ارتفعت إلى الأعلى وامتدت لتطوّق عنقها في النهاية بطريقة ضاقت معها حيلي وخبرتي التي أصبحت أمامها هباء منثورا ..

---

(١) الاصطبار: أعلى درجات الصبر

(٢) تجشّم: تكلف على مشقة

.صُدم الهيثم وبُهِت .. بينما تاهت والزهراء في متاهة التعبير: أيعني ذلك .. ألا علاج لها ..

.لم أقل ذلك و سأبدأ بالبحث حالا ..

.وكم من الوقت ستأخذين؟

.لا أعلم الغيب ولكني .. سأبذل جهدي وما تبقى من عمري لأعجّل في إيجاده ومع هذا .. فهناك أمر آخر .. هنا التفتت إليها معتذرة منها بسنا[1] بصرها وإليه محذِّرة فقالت: إياك ثم إياك والاقتراب منها بعد الآن .. فلا قدرة لها على تحمُّل مشاعر جياشة تتعب جسدها أكثر أو حمل جنين وهي في غاية الضعف هكذا .. فلربما أنَّ تلك الجذور خنقته وخنقتها وحينها .. ستعجّل في موته وموتها ..

.لا .. لست متأكدة مما تقولين .. قالتها الزهراء تنفي بوجه يروي قصة معاناة أخرى ..

.لا .. لست متأكدة .. فارتاحت للحظة ما لبثت وانقضت لما استيقظت من غفوتها فزعة حين أردفت: ومع هذا فقد يحصل ذلك .. سامحيني بنيَّتي ..

.لحظات صمت تمتمت بعدها إليها قائلة بطرف ذابل:

لقد فقدته للأبد ..

فكادت أن تدمع عيناها ..

---

(١) سنا: ضوء

تضاعف كرب الزهراء وثقُلت أحمالها من همٍ وغمٍ وحزنٍ يكاد يصرعها وخصوصا .. بعد أن اعتذر معظم الأطباء والأكرمي بنفسه عن علاجها .. لمحدودية علمه وعجزه أمام خبرة عاتكة فهو أحد تلاميذها لتتبخر الآمال إلى آلام استقرت وسط قلبين ..

قلب خائف .. واثق يبكي ..

وقلب محتار يدَّعي القوة وهو أضعف من أن يبديها ..

كانت هكذا ..تواري هذا وتتمسك بذلك .. تضع الحجر فوق الحجر وتسُد الفراغات لينهار كل ذلك قبل أن تغيب شمس ذلك البنيان وللأبد بأقل من لحظة لما علمت .. بأمر حملها .. فقد زارتها ذات صباح – ولم تكن حينها قد أخبرت أحدا أو الهيثم بفحوى سعادتها – لتجدها مستلقية على سريرها على شقّها الأيمن وإلى جانبها زبيدة تؤنسها وتعتني بها .. استغربت حينما لم تجد منها ذلك الترحيب الودي الذي اعتادت عليه .. لقد كان جافا مقتضبا فاضحا للنوايا دعستها[1] خولة في التراب لتجد العذر يطرق الباب "إنه المرض وأسبابه ليس إلا" ثم جلست .. تسأل عن حالها وحال أميمة وعن مكان الهيثم ثم أخبرتها بأمر حملها ..

. مزّت الزهراء شفتها بشدة فأدمتها وأخذت تتنفس بعمق في حين اغرورقت عيناها بالدموع .. ذلك الوجه الذابل بات أكثر ذبولا .. وتلك النظرة التي كانت تختفي شيئا فشيئا كلما صُرع الأمل تدريجيا في نفسها اليائسة

(١) دعس: طعن

المتشبثة بشيء منه .. أراها قد انحسرت أبديا خلف كلمات غاضبة غير مدركة: لماذا فعلت ذلك؟

. ماذا تعنين؟

. ألا يكفيك أن تحصلي عليه كاملا؟

. مالذي تقولينه؟

. خولة .. أسألك بالله أن تخرجي قبل أن تمسَّك نيران غضبي الآثمة .. وحين لم تفعل نهرتها بقوة بدموع قد تفلّتت تصرخ هي الأخرى: أخرجي .. فخرجت .. قلقة .. حائرة في أمرها تبحث عن إجابة.

عرَّج الهيثم على الزهراء أولا قبل خولة للاطمئنان عليها فهي ليلة الأخيرة .. لم يجدها في سريرها ولم تقع عيناه على أثر لها في أرجاء الغرفة الواسعة .. تقدم نحو باب غرفة جانبية يولج إلى فسحة عظيمة تربط بين جناحين .. فسحة ذات أرضية من كريستال ذي سماكة ومتانة لا اعوجاج فيه ولا خطوط تفصله .. فهو ذو سطح أملس ناعم لامع يختزل بشفافيته الليل .. بأقماره بأنجمه بظلمته وشهبه بأرجائه الواسعة .. والصبح بغيماته بسحاباته بزرقته الصافية وشموسه الدافئة .. بأحواله المختلفة وهيئاته المتعددة وبركة في المنتصف .. تُكْمِلُ هذا وذاك فتغمر الصبح دفئا على دفئه، والليل مزيدا من الأستاروالأسرار.. مزيدا من السكون والشاعرية ..

كانت الزهراء تخطو حافية القدمين ببطء شديد نحو أريكة قرب البركة حين نادها الهيثم فاستقرت حيث سطع القمر بدرا .. يضيء وجها غاب عنه ضياؤه .. التفتت إليه فتناول يدها بيده فاتكأت عليه .. ترتاح قليلا فإن كانت الطريق للناظر قصيرة فهي للزهراء .. طويلة مجهدة .. متعبة ومؤلمة .. سألت فرحة، ظنا منها بأنها .... ولكنها ..... : أجئت تقضي الليلة أيضا بقربي؟ لم يجبها، فدنت منه تريد تقبيله تريده أن يستسلم لها فيشعرها بأنوثتها المسلوبة، فصد عنها قائلا: عودي إلى الداخل ..

. ماذا .. أتخشى على نفسك من قبلة صغيرة؟

. بل أخشى أن أتمادى وأنا الضعيف أمام هواك ..

. قطّبت حاجبيها منزعجة: أتراك صدقت ما أتت به عاتكة ..

. ولم لا؟ إن كان فيما تقول نجاة لك فأنا راض ..

. باشمئزاز وانفعال بالغين: وكيف لك ألا تكون ولك أخرى .. تُشبع رغباتك وتحمل طفلا سينسيك وجها متعكرا كوجهي وجسدا فارغا كجسدي وروحا بالية .. قد قتلها الشك قبل أن يقتلها الألم .. إنها الأسباب ذاتها التي دعتك للزواج بها .. لم تخبرني .. ولم تكن في حاجة وأنا التي كنت أنتظر .. صمتت ثم أردفت تزفر بأنفاسها بنظراتها بنأمة[1] صوتها زفرات محتضر لم يعد يرجو من الحياة أياما أخرى: قلت لك يوما .. "ملّكتك قلبًا .. فاصنع به ما شئت" .. وقد شئت أن تقسو عليه بما تفعل .. فعد إليها وهي تزيح ذراعه:

---

* أنظر الأبيات في المقدمة

(١) نأمة: صوت

عد إليها .. ببكاء صامت غاضب: فلا رغبة لي برؤيتك .. لا برؤيتها .. لا برؤية أحد !! وأكملت طريقها كمن يرسف[١] في قيده متثاقلا .. حتى إذا ما جلست وهدأت قليلا أجابها من مكانه بحسّ مجروح مخدوش قد أصابه من البلاء ما يجعله أشد بلاءً منها:

سأبقى الليلة هنا .. ثم عاد إلى الداخل ..

ظلّت الزهراء تداعب سطح الماء وهي .. تدندن وتردّد أبياتا تواترت بين المحبّ والحبيب تُعزف بلحن آسر شجي* حتى إذا ما تثاقل عليها الألم وناح نزلت إلى البركة تطفأ .. ببرودة أمواج داعبها النسيم حرارة ألهبت جسدها وقد أفلحت فلما همّت بالخروج .. وجدته عند رأسها .. مدّ لها يد العون فلم تبخل عليه بمدّ يدها .. ألحفها بلحاف دافئ وحملها بين ذراعيه صامتة شاردة الذهن بأفكارها وأسكنها أمام المدفأة .. لم ترغب في تغيير ملابسها ولعنادها .. أرغمته على فعل ذلك .. على تجفيفها وتغيير هندامها وتسريح شعرها وتعطيرها علّها .. تغريه بأن يقبل عليها غير أنه .. لم يزل مصرّا على موقفه حتى يئست .. استلقت على سريرها وهو في زاوية أخرى .. على مهد صنعه بيده .. وقبل أن تسدل جفنيها .. سألته قائلة: أتعلم ما تحتقره كل امرأة في نفسها وتخشاه .. أن تفقد الشعور في أن تكون .. امرأة ... فيجيبها: لا تيأسي من رَوْحِ الله ..

لتلتزم الهدوء بعدها وهي تنظر بعيدًا .. بقلب واجفٍ نحو مصيرها .. قد ماتت خنقا ..

---

(١) يرسف: يمشي مشي المقيَّد

والهيثم يحمل طفلا ينظر إليها بإشفاق ..
وخولة إلى جانبه تتأبط ذراعه لايبدو عليها المبالاة ..
لقد بات الأمل لديها ..
كشهاب ضاع في الأفق ..
كقشة لا تخشى الهشيم[١] ..
كغصن سنديان لمّا ذبلت روحه ..
فتساقطت أوراقه وجفّ عوده لمّا ..
لم يعد صاحبه المغرّد منذ ذلك الشتاء ..
تلك هي الزهراء ..
زهرة النرجس البيضاء ..
لم تعد ترغب بشرب الماء ..
لا بأشعة الشمس الذهبية ..
لا بالتبحّر بجمال الطبيعة من حولها بل إليه ..
ليتوقف ويكتفي إليها ..
لتغيب بحثا عن أرض أخرى ..
وإلى الطبيعة لتنتهي قائلة:
الوداع ..

(١) الهشيم: الكلأ اليابس بعد أن أكلت نضرته وخضرته النيران

اعتذر الهيثم من خولة لمّا أتى لزيارتها في الصباح التالي ثم هنَّأنها وبارك لها حملها بوجه مغتبط .. وبعقد من الماس المعتَّق ألبسها إيّاه فاستفسرت منه مستغربة كيف علم فلما علمت عاتبها على الفور: لم يكن عليك إخبارها ..

. ولِمَ لا .. فكما أنَّ للزهراء طفلة .. أرجو أن تكون لي طفلة كذلك .. قالتها تدافع بحجة عن نفسها فأجابها ما جعلها تسترجع ما جرى في لحظة .. ما جعلها تبرر للزهراء غضبها منها: إن أميمة لا تنتمي لي أو لها .. بل هي ابنة أختي الصغرى "نائلة" .. تركتها في عهدتي صغيرة إلى حين ينتهي زوجها من قمع المؤامرات التي تُحاك حول سلطانه .. إنه يحكم المنطقة الشمالية خارج حدود مملكتي .. كان عَلَيَّ أن أخبرك سابقًا فهو سِرٌّ لا يعلمه أحد .. أنا المُخطئ هنا لا أنت ..

. بأسف شديد وندم أجابت: ولكنها ستنجب حتما ..

. فرد عليها مطأطئ الرأس وذلك الصوت الرخيم قد تحطَّم .. عند عتبات كلمات سمعها فأنصت إليها وصدّقها: لقد أسقطت الزهراء مرتين بسبب تلك الآلام التي كانت للجميع مألوفة .. توقفنا بعدها عن المحاولة لبعض الوقت لنتوقف بالمَّرة .. لقد حذرتني الحكيمة لما جاءت من الاقتراب منها .. فجسدها متعب والحمل أمر جلل .. قد يعني موته وموتها ..

لازالت تنظر إليه مشفقة عليه كاسفة البال لأجلها حتى انتقلت ببصرها .. تلامس بأناملها مكان نطفة لم تتشكل بعد لحظات .. وإذ بتلك الذراع التي تحيط بها .. وقبلةٌ طُبعت على جبينها وكلماتٌ أثلجت صدرها فقد كانت في حاجة لها قال بابتسامة:

ومع ذلك فأنا سعيد لأجلك .. فحملك هو هبة من الله .. لا تستحق منّا سوى الحمد والثناء ثم ضمّها إليه مجددا .. يحجب عن محايّاها ابتسامة مادامت حتى تلاشت وهو .. يحدق من خلال الستائر إلى المستقبل الذي بات قريبا ..

زهرة في واديه تُقطف حية ..
وأخرى ذابلة ..
لم تعد تشعر بالألم ..
لشدة الألم ..
فنائلة ..
في الغد قادمة ..
لاصطحاب أميمة ..
معها ..
إلى الأبد ..

في صباح ذلك اليوم المنتظر ذي النسمات الربيعية الحرة .. نسائم انبعثت عبر نوافذ القصر ومخارجه .. تغدو وتروح عبر منافذه .. تنسب إلى نفسها بسعادة أحاديث امرأة صغيرة تحاور الزهراء في مواضيع أكبر من سنّها .. قد شمّرت عن ذراعين كلفائف الحنطة المحشوة .. تدعك بكفَّين بحجم رأس ملعقة فضية .. كفَّين من حرير وأنامل من لؤلؤ .. تدعك بهما متن الزهراء بزيت أرسلته عاتكة برائحة البابونج الزكية علّه .. يخفف شيئا من

حدة ألمها وقد فعلت .. تثرثر كعادتها من فم معطّر صغير كحبة الصنوبر وهي تحاكيها .. بعيون دعجاء[١] بلون العسل الصافي في وضح النهار .. والزهراء تبادلها الحديث مسرورة لوجودها بقربها ..

لا تعلم شيئا عن خطى الأقدام التي وطأت للتَّوِّ أرض القصر..
إنها ليست سوى لحظات ..
من ستقرع ناقوس الألم من جديد ..
فهي اللحظة إذن من تجعلنا ..
في ترقّب شديد ..
أو إهمال تام ..
أو بين هذا وذاك هذا ..
ولكل منّا لحظته التي ستواتيه[٢]..
مدركا لها كان أم غافلا عنها ..
مستغلا إياها أو لاهيا عنها ..
لحظة لن تعود .. لن تطرق بابك ثانية ولن ..
تنتظرك حتى تنتهي ..

---

(١) العيون الدعجاء: العيون الواسعة

(٢) ستواتيه: ستأتيه

ما إن انتهت أميمة حتى استندت قرب الزهراء المتكئة .. خلف عدد من النمارق[١] الدمسقية[٢] في وضع حميمي يُمتع أنظار الناظرين إليه من ذوي الضمائر المرهفة ..

فهي المرأة في أوج أمومتها ..

وهي الطفلة تستمتع بأرج[٣] طفولتها وهي تنهل .. محض[٤] وداد امرأة اختصتها بحنانها ..

لحظات .. وإذ بالباب يُطرق .. وإذ بالهيثم يلج ومن بعده .. من شخصت لها الأبصار .. وجف[٥] قلبها فسؤال قضّ مضجعها، فاضطراب تلاه خوف شديد .. فردّت السلام تتمتم به بلهجة متحفظة .. أما أميمة .. فقد اندسّت حالا تحت اللحاف تختبئ ممّن تعرّفت عليها بسهولة .. فأنّا لها أن تنسى أيادي قذفتها صغيرة وتركتها حتى حَسِبت أنها قد نستها وقد تناستها بالفعل .. إلا أنها تداركت غضبها الشديد منها لما رأتها .. هي نائلة أخت الهيثم الصغرى .. يافعة في منتصف العشرين من عمرها .. هي شباب أميمة وحسن مطلعها .. قد مهرت أسباب الحفاظ على نضارتها .. أناقتها واستقامة قوامها ومع ذلك فهي .. لن تبلغ الشمس والقمروقد جمع الهيثم بينهما .. استفسرت عن حالها

---

(١) نمارق: وسائد ومتكآت

(٢) الدمسق: الحرير

(٣) أرج : عطر

(٤) محض: خالص

(٥) وجف قلبها: خفق واضطرب

فشدّت من عزمها ثم أخذت .. تستدرج أميمة بصوت شابته بحّة خفيفة .. بألطاف الحديث بكلمات الشوق وعبارات الترغيب دون مجيب ..

حتى إذا حانت لحظة سكون بينهما سألتها .. وكانت حينها لاتزال ملتحفة قد تسلّلت أكثر أسفل ساقيْها: لماذا أتيت؟

. أتيت لاصطحابك .. لنعد إلى المنزل معا حبيبتي ..

تلك كانت لحظة مرعبة ..

اهتز لها كيان محب ..

وثغى لها صدر ملتاع مشتاق ..

فهي الإجابة التي قصمت ظهر البعير..

وهو السؤال الذي كان يتوخى تلك الإجابة ..

هي إجابة لابدّ منها ..

لن يردعها العناد .. ولن ينقذها الأمل ..

جنحت الزهراء بكل ما ألمّ بها في تلك اللحظة من حزن واستياء .. من يأس ورغبة في البكاء لتستلقي نحو الجهة الأخرى من السرير .. وأميمة على حالها محتفظة بمكانها .. قد أتاحت لها الزهراء بحركتها تلك فسحة إلى متّسعها .. وهو شاهد على كل ذلك .. يعاني منذ البارحة .. لم يعد قادرا على أداء دور المتماسك القوي بعد الآن ..

كيف وهو يعلم بأنَّ ..

أيّاما حلوة ستُولِّي ..

ضحكات لن تُسمع ..

وشباب لن يبصره يُشرق أمامه ..
وفناجين المساء ستغدو فارغة ..
ورواية لم تكتمل ستنتهي برحيل ريشة بيضاء ..
حبرها بات دموعا تنشد منها العودة والبقاء ..
أو ربما معجزة من السماء ..
. ولكني لن أذهب ..
. ماذا .. ألست في شوق إلى أمك .. إلى أبيك ؟!
. لست أمي .. ولست في شوق إليك لا إليه !!

. حملقت[1] نائلة في الهيثم فاغرة ثغرها ثم نادته لينتبه إليها .. فقد كان شاردا بأفكاره بجلّ جوارحه إليها .. تلك التي تبدو متعبة وقد شعر برغبتها الملحّة بالبكاء .. أعادت عليه ما سمعته للتَّوِ منها، فأنّبها بعتاب أرفقه بكلمات عكست معنى ذلك .. بحث عنها وأخرجها بصعوبة وعناد من جحرها ثم حملها قائلا ولو أنَّ أميمة كانت أكبر سنًّا بقليل لوَعت .. كمَّ رسائل الوداع والفراق المرسلة عبر الأثير إليها: إن لم ترغبِ في الذهاب فلا بأس ولكن .. على الأقل رحبي بضيفتك فهي ما أتت إلا لأجلك .. أريها غرفتك واقرئي عليها روايتك وامنحيها قبلة صغيرة فلم أعهدك قاسية هكذا ..

. أدناها منها فقبّلتها ثم داعبت خصلات شعرها المضمخة[2] برائحة الحناء .. أردفت وكل ما فيها هو شوق حقيقي وحنان لم يُسكب بعد: لقد

(١) الحملقة: النظرة الحادة

(٢) المضمخة: المعطّرة

أصبحت امرأة فاتنة ذات طُرَّة[١] .. هو إطراء لم يجد عند أميمة سوى الاشمئزاز والمزيد منه، إذ مطّت شفتيها بشكل بارز نحو الأمام تعبيرا عن امتعاضها، وما لبثوا أن خرجوا بطلب من الهيثم فالزهراء متعبة وبحاجة إلى الراحة، وإنما أراد بذلك أن يمنحها نفسًا ومتنفَّسا .. خرجوا تاركين إياها بين بكاء صاعد وأنات سقطت وسط جوف مُرِّيتلظّى[٢] بنار العلقم والويلات ..لحظات وعاد إليها متعلّلا بإحضار شيء ما .. فقد كان قلقا جدا عليها .. وقد كان محقا إذ وجدها .. تكاد تغرق نفسها ببحر من دموع لا تنفكّ تنهمر بشدة من مقلتيها .. احتضن يدها وأبعد خصلاتها شعرها المبتلّة عن جبينها ثم جعل يحاول جاهدا التخفيف عنها .. إقناعها .. تصبيرها .. ولكنها لا تفعل .. لم تستطع بل لم تقدر .. فهو اليأس والحرمان من يدفعها إلى ذلك .. وكان مما ردّدته كثيرا على لسانها:

لن أتحمل ..

لن أتحمل ..

حتى إذا ما نشجت بالبكاء قائلة:

إنه فراقي قبل فراقها ..

. أجابها وقد ذبُل حاجباه: وهل نويت حقًّا فراقي؟

---

(١) طرّة: ما تتزين به المرأة من الشعر الموفى على جبهتها

(٢) يتلظّى: يتقد ويحترق

. لست أنا من ينوي فراقك، ولكنها الحياة التي دونها كل الموت .. أراه قريبا محتّما قد هلكت خنقا مسمّرة[١] فوق فراشي .. هنا صمت الهيثم هنيهة يُنعم النظر[٢] إليها بإحساس صادق ضاقت له مدامعه فتحدّرت .. قطرة ماء عَبَرَت إلى عَبراتها[٣] فاستوقفتها سائلة: أتبكي يا أبا محمد ..

. وهل ما تقولين هيّن علي .. أن أراك ممدّدة دون حراك .. لا والله إن كان فراقها فلن يكون فراقك .. مدّت يدها لتمسح دمعه فأبعدها برفق مردفا:

لستُ سوى المُحبِّ الذي يعلمُ يسمعُ ويرى أن المحبَّ للحبيب متى فارقَ الحياةَ ذوى

فهل ستغادرينها منذ الآن ..

فإن كنت فاعلة ..

فقد غادرتها قبلك بليال ..

ليس لي سوى بقية من ذلك الأمل ..

ينازعني اليأس لسلبها ..

فإن يسلبها ..

بتّ كقطرة ماء سقطت من عباب السماء إلى جحيم الصحراء ..

فاحترقت فسلبت منها الحياة ..

لم يتبقَّ منها سوى ناظريَّ أبصر بهما المغيب ..

---

(١) مسمّرة: مثبتة بالمسامير

(٢) أنعم النظر إليه: أطال النظر إليه

(٣) عبرات: دموع

وجهك الغائب عني ..
وأنا أراك تغيبن الليلة تلو الليلة ..
ولست أسألك سوى ..
الرفق بحالك .. والرأفة بي ..
فهل أطلب الكثير..
ثم خرج من عندها دون أن يزيد ..
هدأت الزهراء حينها .. حينما أدركت ..
كم كانت قاسية ..
جائرة بحكمها حين أحاطت نفسها بدائرة مغلقة ..
صدّت متجاهلة مشاعر المحبّين من حولها ..
وهو الهيثم .. فماذا فعلت ..
فلاذت بالصمت تفتكر بحاله وحالها ..

يومان قضتهما أميمة بصحبة نائلة تتصنع الاستمتاع معها ما استطاعت .. ولليومين ليلتين آوت فيهما إلى فراش الزهراء حذرا منها .. من أن تُسرق مرة أخرى نائمة وقد أفضت لها بذلك فلم تثنها بل .. رحّبت بها وكانت أشد سعادة باختيارها البقاء بقربها تحقيقا لرغبتها التّملي منها[1] قدر استطاعتها قبل أن ترحل اليوم أو غدا .. فلما كان الغد واستيقظت أتتها نائلة

(١) أتملى منه: أملأ عيني منه

تغريها .. بالخروج معها لرؤية الخيل العتاق[1] التي اصطحبتها إلى هنا .. غير أنَّها ما إن عتّبت خارج باب غرفتها بخطوات حتى توقفت فجأة ثم تراجعت، إذ أحست .. بوجود خدعة ما وقد أصاب حدسها، فقد كانت تنوي حبسها داخل المركبة رغما عنها والمغادرة حالا .. قفلت تجري عائدة فلحقت بها وأمسكتها تجرّها خلفها تشّدها من يدها لمّا ضاقت بها ذرعا وأميمة .. تصرخ وتشدّ هي الأخرى في الوقت ذاته في حلقة من عراك شرس لايبدو أنه سينقطع حتى انقطع لما .. دفعتها بقوة وحملتها بين ذراعيها لتنهرها قائلة: ماذا دهاك .. أتتركينها صغيرة وتأتين فجأة لتقتلعيها من جنّتها التي عاشت وترعرعت بها .. لا تكوني مستبدة بعنادك واستعجالك هكذا فترغميها على كرهك راضية ..

. باشمئزاز سألت: ومن تكونين؟

. ولم تكن بعد قد تعرّفت على خولة .. بل لم تكن تنوي التعرّف عليها من الأساس فمُسَمّى "الزوجة الأخرى" في نظرها .. هو تعبير لا إعراب له يرمز إلى .. لعنة أو عقوبة من السماء .. هي نزهة للرجال تُقتل فيها روح المرأة المتفانية في أداء حقوقه وواجباته، وعظمة .. قد حشرت أسفل العنق لن يكفي لدفعها خارجا .. مياه النيل كاملة، ولن تختف هكذا .. بين ليلة وضحاها: لقد اعتدت على تناول الشاي بصحبتها، ثم استدارت تهرول مسرعة نحو غرفة الزهراء .. حاولت اللحاق بها فصدّها الهيثم الذي علم بأمرها من أحد الجند فأتى راكضا .. أجبرها على الانزواء معه خلف أحد الزوايا ثم تحدث إليها بهمس مهدّدا: أعلم بأنك ما جئت إلا لأجلها، أعلم ذلك

(١) الخيل العتاق: الأصيلة الكريمة

وستذهب معك أعدك وستعودين معها إلى المنزل ولكن .. أنصتي إِلَيَّ جيدا أختاه .. إن بلغ مسمعي أنَّ نسمة من أذى مسّت طرفا منها في وجودي في غيابي عنها فأبشري .. بحملة تدّك ملك زوجك وتقتلعك من مملكتك اقتلاعا وتجعلك نادمة .. لقد ربّيت أميمة على الطاعة وحسن الخلق .. فأعينيها على ذلك ولاترغميني على فعل مالا أريد .. ثم أعرض عنها فاعتذرت منه مردفة: ولكن ماذا تُراني أفعل وقد اضطرتني إلى ذلك .. فلديَّ واجبات مهملة .. جدول مهام مزدحم وزوج ينتظر والطريق طويلة والوقت ضيق، فساعدني أرجوك .. ساعدني .. طلب منها أن تنتظر لبعض الوقت ريثما يجد حلا قريبا .. وألا تصنع مزيدا من المشاكل وأن تلتزم مكانها .. ففعلت.

لم تكن الزهراء على علم بما كان يجرى في الخارج لكونها .. كانت تجلس وحيدة على بُعْدِ أمتارٍ عديدة في غرفة فضفاضة أخرى في آخر الجناح بتمام عرضه وطوله، فوق مقعد من جلد أحمر مدبوغ ذي متّكأيين عريضين يستند على أرضية لامعة من شجر الصنوبر محاط .. بجدران بيضاء فارغة كحال الغرفة الفارغة .. اللَّهم من ذلك المقعد الوحيد، كحال الزهراء، فهي .. غرفة رُسمت على مزاجها وصُنعت لأجلها .. إن أتاها الهيثم فهي تستلقي وسط أحضانه أو ربما .. جالسا على الأرض قريبا منها وإن أقبلت أميمة فهي .. تتيح لها مكانا إلى جانبها أو تسكنها مرتاحة مستأنسة في حِجرها .. حينما ولجت خولة كانت الزهراء مسترخية ترمق من مكانها عبر الحائط الزجاجي

المقابل لها .. طيور اللقلق البيضاء وهي تهاجر مروج الأرز الخضراء نحو مكان أكثر دفئا .. فقد أتى الخريف معلنا قدوم الشتاء المتخايل بثوبه المترفّل[١] بطوله المتباهي بقسوته .. قد وضع الحدود وقيّد الأنام[٢] بأوقات الخروج وإعداد العدة فإشعال المواقد وحفظ القوت .. فلست النعيم لأصحاب القمم .. ولست الجحيم لأصحاب النِّمم .. بل أوزّع شؤوني بين ذلك وذاك .. وأفرش الأرض زهرا لأصحاب الهمم ...

مدّت أميمة ذراعيْها فتناولتها الزهراء فتعلّقت برقبتها .. همت خولة بترك المكان فأمسكت برفق يدها وسألتها برجاء بنظراتها أن تجلس على المتكأ قريبا منها فجلست .. فلما علمت بالسبب وكانت أميمة حينها لاتزال تنشج[٣] بالبكاء أشارت بسبابتها قائلة:

أميمة أنظري .. طيور اللقلق راحلة .. ألن تودعيها؟

. لا أحب الوداع ..

. لماذا .. فرحيلها لا يعني أنها لن تعود .. ودِّعيها على أمل اللقاء ..

. هدأت قليلا ثم أردفت: أراغبة أنت أيضا في رحيلي؟

. وكيف لي أن أتمنى ذلك .. لن ترحلي ما دمت لم ترغبي ثم همست لها: لن أسمح لهم بذلك فلاتقلقي .. صمتت هنيهة ثم مدّت يدها تشير إلى المكان حيث بشدة جذبتها: إنه يؤلمني .. أدنت الزهراء شيئا من أطراف شعرها ثم

---

(١) تخايل: تكبر – ترفل: جر ذيله وتبختر في مشيته

(٢) الأنام: البشر

(٣) تنشج: تردد البكاء في صدره من غير انتحاب

طَوَتْ به حول معصمها الذي يبدو بخير.. مسحت بعدها دمعها وقبّلت جبينها ثم ابتسمت وسألتها أن تبتسم لأجلها ففعلت .. لحظات وإذ بها تتلفت إليها: أميمة .. إنه الطائر الأخير.. أسرعت إليه .. ألصقت كفّيها على زجاج الحائط ولبثت قليلا تنظر إليه حتى إذا ما فرد جناحيه وحلّق عاليا .. ودّعته كاسفة البال: إلى اللقاء ..

استيقظت أميمة فأجالت الطرف من حولها لتجد نائلة نائمة مسندة رأسها على الحائط بقربها .. اضطربت أحشاؤها .. فالمكان أشبه بعربة .. وحالا أزاحت ستائر النافذة بجانبها .. ابتلعت ريقها ومالبثت أن ازدادت شدة أنفاسها .. فطريق العودة السالكة إلى جنّتها قد طويت طيّا تحت آثار العجلات التي تجري مسرعة دون هوادة .. انهمرت دموعها بصمت وهي تحاول بما أوتيت من عزمٍ فتح الباب الموصد جيّدا من الخارج .. ولا زالت حتى نوديَ اسمها فذُعرت والتصقت بالباب تنظر إليها شاخصة البصر: اهدئي عزيزتي .. فصرخت فيها .. أن افتحيه الآن فطلبت منها الهدوء ثانية فحاولت فتحه ثانية، ولمّا لم تفلح .. جعلت تطرق بإصرار باب الكوّة[1] في الأعلى ترجو السائق أن يتوقف وهي تنهاه فلا يفعل .. أمسكت بها من الخلف وشدّت على ذراعيها فلم تُجْدِ محاولاتها للهروب نفعا وقد أحاطتها بقوة ساعديها: اتركيني أعود ..

(١) الكوّة: النافذة الصغيرة في الجدار

اتركيني .. وهي تصرخ وتبكي بشدة .. ونائلة تبذل جاهدة جهدها بألين الحديث وأكثره نفعا:

اهدئي حبيبتي ..

لابأس عليك ..

أنا المُخطئة .. أنا المُخطئة ..

ما كان عَلَيَّ تركك منذ البداية ولكني أعدك ..

سأنسيك إيّاهما وسأمنحك الأماني فوق ما تتمنين ..

سنقضي معا أيامًا حلوة بانتظارنا ..

وسنلهو معا بدمى كثيرة ملأت بها غرفتك ..

بصحبة صويحبات يَتُقْنَ للتحدث معك .. وأبٌّ ..

لو تعلمين كم هو توّاق لرؤيتك ..

وشيء من هذا وشيء من ذاك ولكن دون جدوى ..

كلمات كفتات الخبز..

لم تُشبع .. ولم ترقأ لأميمة دمعا ..

فلازالت تبكي حتى أجهشت بالبكاء تناجيهما ..

تناجي .. من انفطر قلبها وهي تراها تُنزع ليلا من بين أحضانها من دون حول لها ولا قوة ..

تناجي .. من حملها بين ذراعيه مرغما لم يخلع ناظريه عنها .. قد اشتاق إليها منذ اللحظة ..

لم ينطق بكلمة وداع .. بل مسح على رأسها وظل واقفا جامدا في مكانه حتى رحلت ..

بسمات .. لحظات قادمة .. وأرواح طاهرة محبّة قد رحلت أيضا بصحبتها ..

. اعتذرت نائلة مرة أخرى منها آسفة نادمة: ليتني لم أتركك .. ليتني لم أفعل ..

في تلك الليلة ..

أوى الهيثم إلى فراش الزهراء يبكي بحرقة بين أحضانها ..

فضمَّته أكثر إلى صدرها .. تخادن دمعه بدمعها ..

أقوى الرجال .. أشجعهم وأعظمهم شأنا ..

أعظمهم رحمة .. من يبكي دون أن يُبالي ببقيَّة الرجال ..

منذ رحيل أميمة .. والمكان بات أكثر هدوءا .. فهو لم يعتد بعد على رحيلها .. وكذلك لم يفعل أحد .. حتى هذا القصر المنيف[1] بكل زينته وتألقه .. أراه وقد بات أشبه بجذع شجرة مسنّة جوفها فارغ يعبث الصدى في أرجائه ويسير بانكسار .. بمحاذاة الجدران وبين ردهاته شجرةٌ .. أحياؤها أموات .. يقتاتون على الذكرى .. متاعهم الوحيد ..

مضى على رحيلها أيام بل أسابيع .. والحال نفسه لم يتغير ولم يتبدل .. أما خولة فقد بدأت تُعِدُّ العدّة لمولودها الجديد .. وأما الزهراء .. فتلك

(١) القصر المنيف: العالي المرتفع

الأعناق الضيقة السوداء كانت قد امتدت حتى تجاوزت حد المنتصف دون تهاون أو تخاذل تقف كالموج العاتي في وجه عاتكة التي .. لم تستلم بعد .. وأما الهيثم .. فهاهو يستعد الآن للتحرك نحو الحدود الجنوبية لبلاده لملاقاة أتباع المعبودة الذين عادوا للانتقام ثأرا لها ..

قد جهَّزوا جيشا عرمرما[1] بضعف أضعاف العدد ..
قد نصّبوا قائدا محنّكا عاشقا محبّا لها ..
قد اصطبغوا بالسواد تكريما لها ..

قد أترعوا[2] سهامهم .. رماحهم .. دماء موتاهم ..
وقد حطّموا أغمدة سيوفهم ..
فإما النصر أو اللحاق بها .. راجين منها الشفاعة ودار الخلود !!

وقد تخلّل هذه الأيام زيارات قليلة من الأهل والأقارب للاطمئنان على حال الزهراء التي حظيت .. بزيارة أشقائها الأربعة، كان آخرهم "جاسرا" أكبرهم سنّا وأقربهم إلى نفسها .. قد بلغ أشده باكتماله أربعين سنة ومع هذا .. لم يتزوج بعد لمقولة يردّدها:

"أنا فارس علمٍ يمتطي جوادا يسعى بين جنة ونار .. نارٌ لهبها بَرَدٌ يثلج صدري .. هي الحرب أسعى إليها سَعْيَ الراغب في البقاء .. وجنة لا أكتفي منها .. هي العلم لا أملّه حتى يملّني .. أنهل منه كما ينهل الراجي المدد من ربّ السماء ..

---

(١) جيشا عرمرما: كثيرا

(٢) ترع: امتلأ

وبرزخ[١] بينهما .. هو مستقر المرأة في قلبي .. ومرتع طفل أداعبه .. وفراش دافئ يؤوينا .. لا أبلغه حتى .. أنتهي من ذلك وأشبع من ذاك .. فهو لذا .. مستحيل استحالة المقبور يبعث حيّا قبل يوم اللقاء .. إلا أن يشاء الله" ..

. وحين سُئل عن الحُب أجاب: هو حدّ لا توازن فيه .. فإن خفّت بك الكفّة فهو الحسد والبغضاء .. وإن مالت بك فهي الأنانية والمحاباة .. وإن اتفق العدل بينهما .. فهو الحب الذي يعطي دون حدود ..

. ولمّا سُئل عن فتاة أحلامه اكتفى بالرد قائلا: هي امرأة تدرك عقلي .. .وذات حسن وجمال ..

. وما يغني ذلك عنها إن كان عقلها قد نخسه[٢] جمالها .. فهي في التهاء عن ذلك بذاك .. كما أني لست بحاجة إلى امرأة تأسرني بجمالها بل إلى امرأة .. تُكْمِلُني بعقلها ..

كانت الزهراء تبحث له عن زوجة بمقاييسه غير أن المرض أقعدها فانقطع سعيها ..

جاسر .. سمرة دمشقية .. حاجبان غليظان .. نظرات حادة وسواد اختلط بلون شعره الكستنائي .. وقد أطلق لحيته فأطلق الحكمة والشدة على محيّاه .. قوام صلب وعزيمة لا تفل .. مبين النطق[٣].. قليل العثرات .. شديد اللطف .. بالغ العطف والحنان .. قد تكفّل قبل عشرين عاما برعاية

---

(١) البرزخ: الحياة بعد الموت إلى يوم البعث

(٢) النّخاس: بائع العبيد

(٣) مبين النطق: واضح الصوت

وتربية عشرة ذكور صغار شبوّا على يديه حتى أصبحوا .. صورة طبق الأصل منه فهم منه وإليه يدينون بالولاء له لا إلى سواه .. قد وصلت أخبار بطولاتهم أصقاع[١] البلاد .. شمالها وشرقها .. جنوبها وغربها حتى لقّبوا بـ "الجاسريَّة العظام" .. وكان مما اشتهر به أنَّه:

- قطع لسان ملحد تمادى في سبّ الرسول الكريم ﷺ ..

- أنَّه ألقى بنفسه وبفرقته كاملة في التهلكة لمّا واجه .. "فرقة الجلاّدين" - عصابة قوامها ثلاثمئة مقاتل بكامل عدّتهم – لإنقاذ قرية مسيحية كانت واقعة تحت وطأة ظلمهم وسطوتهم .. ليخرج مظفّرا وبشهرة جاست[٢] أرجاء المعمورة ذهابًا وإيابا ..

- وقد قام أيضا .. بحفر بئر- أسماه على اسم شقيقته "الزهراء" - بيديه ولوحده في يوم وليلة ليس إلا .. ومن أهم مؤلفاته .. كتابان يتيمان "عِشرة الصالحين" و"لغة السماء" ..

وقد أتى لزيارتها ولإبلاغها رسالة أمه التي تطمئن فيها على حال ابنتها وقد حال المرض وطول الطريق ومشقته من الوصول إليها .. وأيضا .. للذهاب بصحبة الهيثم لخوض المعركة الدائرة هناك كعادته غير أنه .. تراجع مُؤثرا البقاء قربها على أن يلحق به بعد عدة أيام وهكذا .. غادر الأخير يصحبه نصف جيشه مودِّعا خولة مُقبلا .. جبين من شدَّت طرف ثوبه ترجوه قائلة:

عد إلي سالما ..

---

(١) أصقاع: نواحي

(٢) جاس: دار

انضم الهيثم بجيشه إلى قوة زيد ليكتمل العدد فوضع الخطط وفرزها .. وقد كان ذلك بعد مسيرة أيام ثلاثة .. عسكر الهيثم نهاية آخر يوم فيها قرب منطقة تعج بالبحيرات تُدعى "ملتقى بحيرات البِلَّوْر" هي المدد للقرى حولها وللبحيرات الصغيرة التي تحيط، بها وهي زاد المسافر ومتاعه متى مرّ بها .. وقد لُقبت بذلك اللَّقب لنقاوة مائها وعذوبته ولإشاعة مفادها .. أن للبحيرة صلة بجبل من البِلَّوْر مدفون أسفلها .. تحت سطح الأرض منذ غابر الزمان ..

كُنَّ أيامًا ثلاثة .. لم تغب فيهن الزهراء عن باله لحظة .. فهو قلق باستمرار ومرتاب .. يرجو من الوقت أن يمضي والحرب أن تنقضي ليعود للاعتناء بها ورعايتها .. فهو وإن وكَّل خولة بذلك فإن أخشى ما يخشاه .. أن يكون فراقا أبديا بعيدا عنها ..

أن تناديه فيودّ لو أنه كان قريبا منها ..

إنَّه الحكم وما يمليه على صاحبه من تبعات ..

فهي التضحية .. فالتضحية ثم التضحية ..

وقد آمن الهيثم بذلك فعقل وتوكَّل ..

وغادر تاركا إيّاها في رعاية الله ..

لحق جاسر به بعد ذلك بيوم واحد وليلة .. وقد أتى مُقبلا .. يحمل ملاذا لقلب زوج ملهوف وعاشق، قد ابتلع طُعْمَ الهوى بنظرة شرعية فأدِم[1] الله بينهما فكان زواجا عن تراض منهما .. قُبل المهر وكان حجّة إلى بيت الله الحرام

(١) أدم: ألّف بينهما ووفق

وزُفَّت العروس إلى زوجها في ليلة .. لايزال حاضرها يخبر غائبها فيتحسّر ندما لو أنه حضر..

طمأنه أنَّها بخير ولا داعي لقلقه، ثم دعاه لزيارته مساءً في خيمته التي نُصبت خارج أطراف حدود الجيش بمسافة بعيدة على غير عادته .. فهناك أمر شخصي يود إخباره به .. فالهيثم من أقرب المقربين إليه .. وقد فعل .. وبعد عشاء دسم وكوب من لبن بارد وصافٍ .. بدأ جاسر الحديث يعيد حوارا كان قد دار بينهما سابقا .. عن رغبته الملحّة لزيارة الصين، وكان الجديد هو .. الزواج من فتاة هناك .. هو حديث لم يخلُ من الجد والهزل .. من الواقع الممزوج بالخيال، من الملل والنعاس الذي أصاب الهيثم لمّا احتسى كوب لبن آخر فأعماه فأيقظه فأشربه آخر.. يتحدث إليه حتى غفا ثانية فأيقظه ولازال معه هكذا .. يغفو ويوقظه يغفو ويوقظه حتى إذا ما انتصف الليل ولم تُجد محاولاته لإيقاظه نفعًا .. أشعل فحمًا ونثر بخورًا فنشر رائحة طيبة زكية ثم غادر ليفد من بعده بعد لحظات إلى الخيمة .. وافد جديد يرتدي عباءة سوداء اشتملته[1] من رأسه حتى أخمص قدميه .. لحظات أخرى وكشفت لنا عن سرّها ..

غانية[2] قد تغنّت بحسنها ..

قوام رشيق .. وأطراف معطّرة .. وأعطاف مسجّاة[1] بثوب قد حاكته أياد تهوى الليل .. تهوى الحُبَّ والهوى .. بمحيّا كاستفاقة الندى .. قد انماث[2]

---

(١) يشتمل بكسائه: متغطيا بكسائه الذي يلف جسده لفا- يلتحف به

(٢) غانية: المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة

الثلج .. فتورّدت وجنتاه .. قد تبسّم الفجر في كحل عينيه وهو يرى في سواد مقلتيه كيف يبزغ جميلا حين يراه .. قد عقصت[٣] شعرها إلى الخلف ثم أرسلته ناعما مترفلا[٤] فوق كتف .. لا يستره سوى خيط رفيع من بكرة صفراء

أميرة من الشرق ..

سيدة عشاّق الغرب ..

غير أنّ سلطانه قد هزّ عرشها ..

قد أطاح بملكها ..

فتنازلت راضية أن تكون جارية تُغدق عليه من عطائها ..

دون منّ منها أو انتظار لثناء ..

. وقد خطت بثبات نحو النائم الغافل الملتحف هناك .. فدنت منه فأيقظته وهي تداعب بلطف حاجبيه .. ثم سألت تهمس فكأنما عزفت لحنا أو رتّلت شعرا تغزّل بها فتغزّلت به قائلة:

مولاي .. ألست بحاجة إلى امرأة تؤنس وحدتك؟

. فأجابها بصوته الخامل وبجفنين أثقلهما النعاس:

إي وربي .. إني بحاجة إليك .. زهراء قلبي وقلبي طَوع بنانها[١] ..

---

(١) أعطاف مسجّاة: جوانب مغطّاة

(٢) انماث: ذاب

(٣) عقصت: ضفرت

(٤) ترفّل: جر ذيله وتبختر في مشيته

فما الذي كان من أمر الزهراء .. وما الذي أتى بها إلى هنا .. ذلك سيعيدنا إلى الوراء قليلا .. إلى قبيل رحيل الهيثم بأيام حين خلت الزهراء بشقيقها فأفصحت له .. عن رغبتها الملحة في الإنجاب، ثم أطلعته على ما كان على لسان عاتكة وموقف الهيثم مما قالت، وإن كانت عاتكة لم تر ذلك يوما بأمّ عينيها ثم سألته برجاء .. أن يشاركها خطّة تُمكِّنها من ذلك فرفض رفضا شديدا فحاولت إقناعه باستخارات عدة قامت بها، وفي كل ليلة تتلوها ترى أنها ترتوي من ماء نهر جار وبساط من عشب أخضر يانع يدنوها إلا أنه أصرّ على رفضه مُدحضا حجّتها بأنها ليست سوى أضغاث أحلام .. فحاولت مجددا متّخذة من الحرب منفذا لها .. فالموت والحياة فيها بإذنه تعالى، وكذلك حالها .. فإن كان في الإنجاب شر فهو الموت المقّدر له ولها، وإن كان فيه خير..

فهي أميمة التي رحلت ..
والطفل الذي تمنّت ..
والأمومة التي تنازعها ..
والمرض قد يطول والعلاج قد يأتي ولكن ربما ..
بعد أن يمحل صدرها [٢] .. و يجفّ رحمها ....
فتتمنى حينها لو أنها فعلت .. لو أنها لم تُصغ ثم سعت ..

---

(١) بنان: الأصابع

(٢) يمحل صدرها: جفّ

وليس أشد على المرأة في مثل حالها من رؤية طفل لامرأة أخرى يرتع بين أحضان زوجها ..

وقد أتته الزهراء من كل جانب حتى لم يجد خلاصا إلا أن يعينها .. كيف وهو يراها عطشى لكلمة منه ترويها فقبل، وقد وعدته إثر سؤال منه أنها ستكون المحاولة اليتيمة ما دامت لها الحياة فبدأ .. وكانت الخطة .. أن تلحق بالهيثم بعد رحيله بساعات .. أن تتسلّل من غرفتها .. أن تبقى الدار مغلقة وتظل زبيدة هناك تحرسها فلا تُفتضح .. أن يستدرجه إلى خيمته .. أن يكون هناك .. عشاء دسم .. وكوب أو كوبان من لبن بارد وصافٍ .. أن يوقظه كلما غفا .. أن يشعل فحما أن ينثر بخورا فينشر رائحة طيبة زكية .. حتى إذا ما أتت .. أيقظته فظنّ مهلوسا إثر نوم عميق أثقل عليه وجثم على مراكز الإدراك والتمييز في عقله، أنَّه في حلم، وكان قبلها قد أبصرها في منامه لليلتين ..

فظن ما ظن .. وجرى ما جرى ..

وكان للزهراء ما أرادت ..

استيقظ الهيثم مذعورا قبيل الفجر بقليل إثر كابوس رآه .. أجال الطرف من حوله[١] ثم إلى الهامة[٢] التي تتصبّب عرقا ترقد قريبا منه فوق صدره .. لحظات ظل فيها مذهولا لينزاح بحسده سريعا بعيدا عنها ولم يكن بعد قد تعرّف عليها فقد كان ينظر إليها من الأعلى .. قطّب حاجبيه وبرقت مقلتاه .. قرص ذراعه ونثر ماءً على وجهه .. نثرات لم تستطع أن تبعد ظلال الحقيقة عن شموس الشك والوهم لتبقى قابعة في مكانها متوارية عن الأنظار.. نظر إلى حاله وحالها فأدرك ما جرى .. وفِعلَ جاسر ومالذي أتى بها إلى هنا .. غير أنها لم تكن سوى لحظات طفق من بعدها إليها .. يحاول إيقاظها فهي تتنفّس بصعوبة بأنين كصرير باب تتلاعب به الرياح فتلك الأعناق السوداء .. وإن كانت بالأمس قد تجاوزت حدّ المنتصف فهي اليوم .. تكاد تلامس حدود رقبتها .. إنها تسعى إلى خلاصها، وهو أمر لم يَنْوِ الهيثم التصديق به بعد، فحاول مجددا لتستفيق ولكن .. بطرف لا يكاد يبين لم يلحظه الهيثم حتّى .. أبصرت من خلاله خوفه وهلعه .. صوت حبّه الباكي ورجاءه أن تنطق ولو بكلمة .. ولكنها عاجزة عن ذلك .. عاجزة عن الحركة .. فاترة القوة .. متعبة الجسد .. منهكة الروح .. تستغل كل فرصة للحديث للحصول على أنفاس أخرى ولمّا لم يُفلح .. سترها ستر نفسه ثم تركها وانطلق مسرعا يغّذ السير[٣] ليرجع بطبيب الجيش إليها .. اقترب ليجد زيدا عند باب

---

(١) أجال الطرف من حوله: نظر حوله

(٢) الهامة: الرأس

(٣) يغّذ السير: يسرع

خيمته ينتظر مشورة سيّده فأتباع المعبودة .. قد تقدّموا من خلال الضباب إلى مسافة قريبة لم تكن متوقعة، إذ كان يفصل بينهما مسيرة يوم كامل .. ناداه يسترعي انتباهه فلم يجبه بل لم يره .. فباله مشغول وفكره مُنساق خلف هواجسه وتحت سطوة يأسه .. ولج ليجد جاسرا بقربها يحاول بما يملك من دراية مساعدتها وكان .. قد سمع في وقت سابق زيدا ينادي فاستوقفه واستأذن بالدخول عليهما فلم يجبه أحد واستمع إلى أنين الزهراء فدلف إلى الداخل وكان منه بعد ذلك ما جرى .. ما إن رآه الهيثم حتى انقضّ عليه فلكمه فأسال الدم من أنفه ونهره: أيهاّ المغفل .. أيّها المغفل لم أحضرتها إلى هنا؟

. لا أعلم .. بوجه امتقع بألوان الخشية والخجل !!

. وأين ذهب عقلك إن كنت لا تعلم أم أنّه رحل مع المراكب العائدة إلى الصين ؟! والله لأقتلنّك خنقا كما ستفعل بها .. وقد كاد أن يودي به .. فلا سبيل لرجل مهما تعاظمت قوته إن كان بين يَدَيْ رجل غاضب مهما اشتدت نِحْلَتُه[1] .. سيهلك عاجلا أو آجلا لا محالة .. هَمَّ به لولا الطبيب الذي أخبره أنها تحتضر ولم يعد قادرا على إنقاذها، فكف أذاه وتهالك أرضا فقد خارت قواه .. ذلك البحر الهائج بكل أمواجه قد استحال بين غمضة عين وانتباهتها .. إلى أرض سبخة[2] شهباء[3] .. ما إن أفلته حتى أسرع إليها يسأل والطبيب يجيب

---

(١) مهما اشتدت نحلته: مهما اشتد هزل جسده

(٢) سبخة: ذات نزوملح

(٣) شهباء: لا خضرة فيها ولم يسقط فيها مطر

يعيد عليه ما قال ويؤكده، والهيثم على حاله جامد في مكانه .. شاحب ساهم[١] مضطرب البصر .. قد فاض بالحزن فدمعت عيناه والأمل قد أدبر تاركا شيئا من بقاياه والمرض هاهو يفتك بعزيز عليه فأنّا لقلب كقلبه .. أن يصبر على ما يراه .. لحظات وأشاح بذلك كلّه وإليها فألحفها وحملها بين ذراعيه يريد العودة بها في الحال .. علّ عاتكة تنقذها وهي الأدرى بها .. خرج فلحقوا به وزيد الذي تفاجأ بسيده غير أن الأمر جلل ولا يحتمل السؤال .. أطلعه على الوضع فأمره أن يعدّ خيله فأعاد عليه ما قال فأمره .. بحدة أن يعدّ خيله فرجاه أن يستمع إليه فتركه ومضى نحو الأمام .. اعترض جاسر طريقه وطلب منه أن يترك أمر نقل الزهراء إليه، فالعدو قريب والحرب معلنة والجيش بحاجة إليه، ولن يتحرك مادام قائده لم يفتح له بعد الأبواب فرفض .. فهو غير قادر على القيام بذلك الآن ليصرّ الآخر إصرارا على طلبه .. فرقاب كثيرة معلّقة في عنقه، وهي بلاد زوالها وقيامها مناط .. بإشارة من يده دون جدوى لينتزعها نزعا من بين ذراعيه ولينطلق من بعدها فوق ظهر الأكحل فهو الأشد وثبا والأكثر تحملا .. صاح فيه يناديه دون خطوة أخرى يخطوها فزيد ومجموع من الجند قد أحاطوا به بكل ما أوتوا من عزم وشدة وكتّفوا أياديه حتى إذا ما غابت عن ناظريه واختفت .. ناجاها بدمع منهمر قد اخضلّت[٢] به لحيته قد بلّل وجنتيه:

قد أتت تودّعني .. قد علمت بذلك فأرغمتني ..

---

(١) ساهم: متغير اللون إلى الأسفل

(٢) اخضلّت: ابتلّت

. علم أن حال سيده لم تزد إلا سوءا برحيلها: سيدي لا تخادن[١] اليأس فينسخ إيمانك كفرا[٢] فتكون من النادمين .. التفت إليه .. لحظة صمت جاشت من بعدها مشاعر الفقد والفراق تنوح وتنتحب: ولكنها .. ولكنها من أحب يا زيد .. من أحب ..

. تأثر زيد بحال صاحبه وبنأمة صوته المتهدج[٣] ولكن ماذا عساه أن يفعل .. فهو الآخر في شغل من أمره ومحتاج إلى اهتمام سيده الكامل: سيدي توقف عن البكاء إني بحاجة إلى قوتك ..

. ولكني لم أعد أملك شيئا منها الآن .. لقد تحمّلت كثيرا وصبرت طويلا حتى نفدت سبلي وخارت قواي .. إني متعب .. لست بقادر على حمل نفسي فكيف لي بحمل سلاح .. لا أستطيع .. لا أستطيع .. ثم أجهش مجددا بالبكاء .. فلما طلع الفجر وأتاه الرسول يخبره .. أن العدو أصبح على مرأى العين .. طلب منه أن يعينه .. ألبساه درعه وسيفه دون بقية أسلحته وخوذة تستره ثم التفت بعدها إليه يزجره بعنف: سيدي .. إن لم تكن قادرا على القتال فحرام عليك .. أن تصنع مُنكرا بأصحابك برؤية وجهك الباكي فتثبّط همّتهم .. احبس صوتك ودع حزنك في قلبك .. ذلك يكفي أن نذود عنك وقت المعركة فهلا فعلت .. صمت الهيثم مطأطئا رأسه، فحملاه فوق فرسه التي جاوراها وانطلقا به .. زيد ..

---

(١) تخادن: تصادق

(٢) تنسخ إيمانك كفرا: تبدله بالكفر

(٣) تهدج: تقطّع في ارتعاش

أما علمت يا زيد ..
أنها مكانتها في قلبه ..
أنها المحبوبة لديه ...
أنها من انفرط عقد عقله ما إن انفلتت من بين يديه .. فاعذره ..

سرت في الجيش إشاعة مفادها .. أن القائد مقبل يرتدي خوذته فتبعثركلّ إلى خيمته يبحث عن خاصّته ليرتديها - وهي خوذة بمحيط الرأس بلون الدرع تحيط به بفتحات ضيّقة على امتداد الوجه وبمتسع بارز باتساع منطقة البصر.. ذات طرف مدبب من الأعلى مبروم من الأسفل- ولم يكن زيد قد حسب لذلك حسابا .. فلما وصل تفاجأ بالفوضى التي عمّت .. الكل في تشتّت والأطراف شبه ثابتة ورؤساء الجيش يسعون جاهدين لإعادة كلّ إلى مكانه والعدو مقبل بحماسة ولم يخفّ السير منذ البارحة ليبدأ الهجوم .. فلم يكن أمام زيد لكي يعيد الأمور إلى نصابها إلا أن يستفزّ فرس الهيثم لتنطلق وهو على ظهرها لايبدو أنه يبالي .. فبصره خاشع وصوته محبوس وسيفه لايزال في غمده .. ما إن رآه أصحابه حتى تركوا ما في أيديهم مسرعين خلفه فهم لا يتخلّفون عنه .. لحقوا به حتى جاوروه جنبا لجنب وخطوة بخطوة يذودون عنه بأرواحهم .. يقاتلون في سبيله قتال المستميت لا يستلذّ بالموت .. مادام صاحبه لا ينضح بالحياة .. والتحم الجيشان ليبدأ القادة بتنظيم الصفوف ما استطاعوا والقتال في الوقت عينه بتطبيق خطة طوارئ

علّها تنقذ الموقف .. انقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة بينما انضم جزء من المؤخرة للمقدمة ليلتفَّ ما تبقى خلف صفوفهم فيحيطون بهم .. والشاهد من الأعلى سيبصر حلقة شبه مغلقة في الوسط والهيثم في منتصفها يذود عنه أولياء جاسر.. زيد وتابعه .. عمرو ويوسف ذلك العبد الأسود الذي أنقذه الهيثم آنفا[1].. صيحات القتلى والدماء التي ثارت في كل مكان لم تحرك فيه ساكنا فقد كان .. شارد الذهن يفكّر بأسئلة انهدَّت كالسَّد فوق رأسه إن كان جاسر قد وفى بوعده .. إن كانت عاتكة قد فعلت شيئا .. إن كانت لاتزال على قيد الحياة .. ولا زال حتى أصيبت فرسه فألقته أرضا .. تأوَّه هنيهة صمت بعدها ينظر إلى السماء الملبّدة بالغيوم يدندن .. أبياتا تواترت بين المحبّ والحبيب تعزف بلحن آسر شجي* وأُقسم .. أنَّ كل من يراه في تلك اللحظات ليقولن: "ما هذا إلا رجل ينتظر الموت أن يأتيه بعد لحظات" .. لقد استسلم ليأسه .. أنّها قد رحلت .. فأذعن لصوت الموت .. ورحَّب به .. فقرّر الرحيل .. رفع يده يريد أن يمسك يدها فاحتضنها يوسف الذي أسرع إليه .. يسأل عن حاله وهو يعينه ويحمله على الوقوف ليأتيه .. سهم غادر من الخلف وآخر شقّ عنقه فهي سهام صُنعت .. لتخترق دروعا كتلك الدروع ..استيقظ الهيثم فجأة من غفوته إثر صيحة صاحبه الذي قُتل بين يديه وفي سبيله .. ماذا عساه أن يفعل .. خلع خوذته ومكَّنه من أن يجثو على ركبتيه وجعل يلحّ عليه أن قُلْ: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" لتكون آخر عهده

---

* أنظر الأبيات في المقدمة

(١) آنفا: سابقا

قبل أن يرحل .. ولكنه كان في كل مرة يبتلع ريقه حتى إذا ما ألح عليه ثانية همس في أذنه في ارتعاش قائلا: لا .. بل أنت ربي وأنا عبدك .. فجحظت عيناه .. فيوسف لم يكن قد أسلم بعد، وهو أمر.. كان الهيثم قد نسيه بالمرَّة فأعاد عليه ما قال ولكنه .. كان قد غاب ومضى بعيدا .. أسنده على التراب وأسدل جفنيه وما كاد حتى اخترق عاتقه[1] سهم آخر.. انتزعه بقوة كاظمًا الألم ثم ارتقى بطرفه الذابل نحو الأعلى فسأل يناجي: "أذلك ابتلاء منك إلهي .." فأمطرت السماء فكأنما أجابته .. خضع محيّاه واستكانت روحه من بعد أن كادت أن تكون آثمة ثم قام من مكانه .. لقد كان الهيثم في شبابه عابدا زاهدا صوّاما قوّاما ناصحا لا يترك أحدا في ضلالة .. يكون له كظلّه لا يتخلّف عنه حتى ينهاه عنها، وقد كان ذلك قبل أن يتولى الحكم، فلما تولاه كان قد ابتعد كثيرا فلما اختلى بحب الزهراء .. فلما مرضت واشتدّ مرضها كان .. قد تخلى عن معظم ذلك حين .. استمع للشيطان وجعل اليأس يتسلَّل كاللِّص بأمان إليه .. حين سرق شيئا من ثباته وإيمانه وكاد أن يقطع الصلة المؤدية إليه ..

لقد كان موقفا جعله يدرك ما كان قد بلا من أمره[2]..

فإن كان من أحد سينقذها .. فهو الذي خلق الداء والدواء ..

ولن يكون ذلك إلا بالعودة مجددا إليه ..

لم ينزع الهيثم حُبَّ الزهراء من قلبه ..

بل اتّخذ من حبّها طريقا له إلى الله ..

---

(١) عاتق: ما بين المنكب والعنق

(٢) بلا من أمره: ما فاته من أمره- ما غفل عنه أو تناساه

نهض فنهض حُبٌّ قديم كان مغمورا ليطفو على السطح برّاقا لا تشوبه شائبة .. وأخرج سيفه وهو يتمتم بـ "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" ومازال يكرّرها ويردّدها حتى اقتنص فريسة فوثب عليها بخفّته المعهودة .. بقوته المشهودة .. فصرعه ليشق الطريق من بعده عرضا وطولا .. يقاتل بشراسة لم تكن قد عُرفت عنه من قبل .. بحماسة أثارت الجند وبشجاعة وإقبال أقبلوا معها بكلمات .. لم تزل على لسانه لا يزيد عنها ولا ينقص حتى صدح فصدحوا بها .. قد جعل منها ملاذا له، وقد كانت المدد له مما أُحيطت به نفسه في تلك اللحظات ..

فهو غاضب منها كجارح حرّيحاول جاهدا الخلاص من قبضة آسره .. ويريد التحليق بها كمن رفرف بجناحيه عاليا لمّا تخلّص من لعنة آسره ..

والعودة بها إلى المنزل مطمئنا لمّا سكن في عشّه بعيدا عن عين آسره ..

لقد قاتلوا كالأسود .. قد اتخذوا من المكان عرينا لهم .. ومن صوت الريح مهدا لزئيرهم ثم التحفوا بالسماء الغاضبة التي تعصف غضبا لغضبهم فيزدادون بأسا وشدة لتحسم المعركة باكرا .. فقد ولى هاربا ثلث جيشهم .. وقُتل الثلث الآخر بينما أُسر وأستسلم بقيتهم .. إنه النصر المظفّر وبأقل الخسائر.. كبّر الجند يهتفون باسم صاحبهم الذي .. اختفى!!

الفصل الرابع

كان جاسر قد انطلق بها فجرا ليصل بعد الغروب بدقائق .. لقد طوى الأكحل الأرض طيّا .. اختصر مسافة ثلاث ليال سيرا راكبين بنهار كامل سعيا للعودة إلى صاحبه، فهو ما إن بلغ وجهته حتى .. قفل راجعا ليخرّ منهارا على الأرض بعد خطوات من شدة التعب فأسرع الجند والخدم إليه، بينما اقتحم جاسر دار عاتكة ونادها كالمجنون لتأتي على عجل ما استطاعت .. ما إن رأتها حتى أحست بالخطر.. فهي تتصبّب عرقا قد ارتفعت حرارتها بنَفسٍ ضيق وأنين يزداد حدة .. دعكت رقبتها وصدرها بدهن ذا رائحة نفّاذة علّه ينفذ متَّسعا فأنفاسا إلى أنفاسها .. وأعدت كمّادات ثلجية للتخفيف من حرارتها وأسقتها دواءً قد صنعته مسبقا لتجربته، علَّه يكون سببا في شفائها إلا أن ذلك كله .. لم يأت بفائدة، ومع هذا فقد طلبت منه الانتظار.. ليوم واحد أو ربما أكثر حينها: سأكوي النار بالنار.. قالتها تتوعَّد تهدِّد تلك الأعناق التي يبدو أنها .. قد ارتعدت فارتدعت لتتوقف في الحال.

مضى أسبوع والزهراء على حالها وعاتكة في حيرة من أمرها .. تحاول جاهدة بشتى أنواع الأدوية والعلاجات التي ابتكرتها في تلك المدة القصيرة لتفقد صبرها في النهاية وتعقد عزمها .. لقد قرّرت أن تكوي النار بالنار كما

هدّدت .. ستقوم بحرق تلك الجذور وقطع أعناقها قبل أن تفقدها .. عملية مرهقة بل ومستحيلة لجسد كجسدها، ومع هذا .. فقد توكلت وبدأت .. أُشعل الفحم حتى إذا ما جَمُر .. غرزت جوفه سكينا رفيعة وانتظرت .. تبسملت ثم دنت وما كادت حتى توقفت بطلب من زبيدة التي أشارت إليها فأتت .. لقد استيقظت الزهراء أخيرا وتحدثت تنادي باسمها بصوت مخنوق مبحوح بالكاد يُسمع: عاتكة ..

. ماذا بينيَّتي؟

. لا تفعلي ..

. لِمَ؟

. إني أجد طعم التراب في فمي ..

. وما يعني ذلك؟

. إني حـ... ثم ابتلعت ريقها لتكمل بصعوبة ومشقة: إني حامل يا عاتكة

بُهِت الجميع وتهالكت فوق الكرسي .. عاتكة ..

تنظر بإشفاق إلى من استيقظت .. خوفا عليه لأجله لتغيب عن الوعي بعدها ..

حاول جاسر إرغامها .. ألا تهتم، أن تُقدم، أن تخاطر دون مخافة من أحد .. فهو وليَّ أمرها لترفض بشدة قائلة: كنت كذلك قبل أن تستيقظ فلما استيقظت .. باتت هي وليَّة أمرها وقد أمرتني أمرًا فانصعت له وإن لم يعجبك ذلك .. فذاك هو الجمر وتلك هي السكين، والمسألة بحاجة إلى خفة يد وقلب

من حديد ليس إلا .. فاصنع ما شئت واتركني بحالي ولا تتجاسر علي .. تركها وولج إلى الداخل .. أمسك السكين برعونة فحرقت يده .. أمسكها ثانية فسقطت من يده .. حاول أخرى بحذر هذه المرة وانتباه ليتعثر بوعاء الجمر كاملا ليتراجع مستسلما .. فلابد أنَّ في الأمر سِرًّا!!

بعد أسبوع آخر مُرٍّ ومرير .. تكشَّف السِّر .. فتلك النُّطفة التي تكوَّنت جعلت تلك الأعناق اللعينة التي قرَّرت البقاء في مكانها وتسمَّرت .. أن تتقهقر ببطء شديد .. شديد جدًّا يوما بعد يوم معجزةٌ .. دمعت لأجلها عيون عاتكة ووجف بسببها .. قلب جاسر والْتهج لها بالحمد والشكر والثناء لسان الزهراء التي ما إن تحسنت قليلا حتى .. سألت عنه فأخبرها بأمره كُلِّه واختفاؤه عن الأنظار بعدها .. وعن قلقه الذي يقض مضجعه وخشيته عليه .. لتطمئنه قائلة:

لست قلقة عليه .. سيعود قريبا فلاتقلق ..

مَرَّ على حملها شهور ثلاثة .. اختفت فيها تلك اللعنات السوداء حتى لم يبق لها أثر .. والفضل في ذلك كلِّه يعود لله وحده من ثَمَّ عاتكة واهتمامها البالغ بها ورعايتها .. وفي ذات صباح وبينما كانت الزهراء تتحدث إلى خولة بأمور عدة وصلت رسالة عاجلة من نائلة تسترجي فيها .. حضور الهيثم حالا فأميمة بحاجة ماسّة إليه .. وفي غيابه لم تجد بُدّا من الذهاب إليها .. وبعد رحلة طويلة واستقبال يليق بها لم يجد حفاوة عند الزهراء التي سألت عن صغيرتها في الحال، فاصطُحبت إليها .. إلى حيث تقضي معظم الوقت ..

ولجت إلى غرفة مظلمة لا يرويها سوى ضوء مشعّ من نافذة سداسية مذهّبة مطرّزة الأطراف .. كانت أميمة في تلك اللحظات محتبية[١] بساقيها فوق فراشها المبعثر تتأمل الصباح بشيء من الشرود واللامبالاة .. فلما نادتها والتفتت إليها .. ثئد[٢] خافقها الصغير واغرورقت عيناها، فلما اقتربت مدّت ذراعيها فاحتضنتها الزهراء بشدة فانهمر دمعهما يروي قصة شوق وفراق .. فأميمة مذ غادرتهما غادرتها ..تلك الروح المشرقة المشعَّة بأحلى الألوان .. لقد أصبحت كثيرة الصمت قليلة الكلام .. هزيلة قليلة الطعام، وعبراتها .. لا تنفكّ تأتيها كل ليلة ومتى اشتاقت إليهما .. لقد أصبحت في منأى عن الكل .. وحيدة تهوى الانعزال .. غير أنها هاهي الآن .. تَطعم من يدها وتثرثر كعادتها .. تتذكر ما مضى .. تضحك وتبتسم لتمضي بصحبتها بعد أيام من شفائها وبعد أن اتفقت معها .. أنَّ الصيف سيكون لها وسيكون لها الشتاء .. فرَضيت.

هناك من يختبئ .. من يهمس سِرًّا: لم أعد ملكا .. قد أتيت من واد سحيق .. قد نذرت نذرا أن أعود كما تُحب ..ثم يتمتم قائلا وهو يمضي في طريق قد هاجت وتطاولت عليها يوما أمواج البحر: لو أنّنا ننهض بجراحنا كما

(١) محتبية بساقيها: جالسة على إليتها وقد ضمت فخذيها إلى بطنها بذراعيها لتستند

(٢) ثئد: ابتل

ينهض هذا الطريق ببقاياه فازدان بصدفه .. لامتلكنا القدرة على أن نصنع منها مناديل ورقية نحرقها في ضوء النهار..

. وسارت به حتى نفذ إلى سوق تكاد تعتصر من شدة الخلق وهناك متسع:

من كان يشعر بالوحدة بين كل أولئك الناس .. فمن الأفضل له أن يختفي .. أو أن يحشر سلطان عذابه بين جدران أربعة .. فما أحوج الناس إلى يده لتمتّد لهم ..

. ومازال يمشي بتؤدة[1] حتى ولج إلى محل للحدادة .. نفخ الكير وضرب الحديد الساخن لتتطاير الشظايا .. إنه على وشك أن يصنع سيفا يفصل الشعرة من رأسها نصفين لحدّته: كنت يوما كتلك الشظايا التي تتناثر هنا وهناك .. لقد ظننت بأني قادر على الاعتناء بنفسي .. لقد كنت مخطئا .. كان لي أن أكون صارما حادّا كهذا السيف .. أُنقذ به روحي وأُنقذ به الأرواح ..

. خرج عند الظهر ليجد شاعرا يسترزق بلسانه .. يثني على بائع الفاكهة بأجزل الكلام:

إن عارِكَ الزمان فَأعـــرهْ ... شيئًا من خُلقكَ الكريـمِ وزِدهْ

فإن عابك فَأعِبهْ بما ليس فيكْ ... وأحسنْ إليهِ وأَكـــرِمهْ

فأنتَ الكريمُ وإن كان الزمـانْ ... قد جار عَليكَ لُؤمًا فَأجِـــرهْ

(١) يمشي بتؤدة: على مهل

فلما انتهى ادعى أنّ شِعره لم يعجبه ثم أمره بوجه صفيق[١] وبلسان أشدّ صفاقة ألاّ يأتيه ثانية .. فصفّق له وأهداه درهما جزاء ما سَمِع ليغادر راضيا شاكرا .. ألقى إليه ذاك بتفاحة فأعادها حيث كانت:

فاللئيمُ لئيمٌ لا يُغنيهِ الــورى والكريمُ كريمٌ ولو كان تحتَ الثـرى

. كانت شمس ذلك النهار قد صبّت جام غضبها كُلِّه، فكادت أن تحرق الأخضر واليابس .. وقد أبصر برعما قد شقّ الأرض باكرا .. فاتّكأ على ساقيه يتأمّله:

كيف حالُك .. أيتها الأصوات الصغيرة ؟!

لايزال جرسك[٢] يتواتر[٣] على أذني من حين إلى آخر..

أمازلت على الذكرى .. أم أنّك نسيت دقائقنا القليلة التي كنّا نقضيها معا !!

لاأظن ذلك ..

فمن السهل أن تنسى من أتى بك إلى الحياة .. ولكن ..

من الصعب أن تنسى من اهتم بك ورعاك وجعلك أغلى ما لديه ..

. وأكمل فلاحة الأرض منهمكا حتى إذا ما أحسَّ .. بقطرات ماء باردة تحدّرت فاختلطت بذرات عرقه التي ارفضَّ[٤] بها جبينه حتى إذا ما شَعُر.. باقتراب رحمة إلهية .. انتقل بطرفه إلى حيث أتى الفرج من السماء .. إلى حيث أذن لها أن

---

(١) الصفاقة: الوقاحة

(٢) جرْس: النغمة والنبرة

(٣) يتواتر: يعود

(٤) ارفضّ: سال

تفتح بوابتها العظيمة ليرفع يديْه يشرع بالدعاء .. تحت وطأة المطر الذي اشتد .. ليحتمي وأصحابه بسقيفة سيد الأرض:

أوتبكي السماء .. أم أنها دموع من لا دموع له !!

لحظات، وترك المكان .. فالبرعم الصغير يكاد يغرق .. فهناك ما يسّد مدخل القناة:

هناك من يبكي الآن .. وأزاح حجارة ضخمة فاستشاطت السماء غضبا[١]:

إنه يبكي بشدة .. ابكِ وأزح عن كاهلك حملا ثقيلا .. اغسل أدرانك[٢] وتطهّر وابدأ من جديد كما بدأت .. وما إن أزاحها حتى أسرع إلى البرعم الصغير ونفض الوحل عنه ليبتسم قائلا:

كيف حالك ؟!

. لقد توقف المطر وانتهى العمل هنا .. استلم أجره كاملا وعاد إلى السوق .. اشترى خبزا .. خمس تمرات وملأ زمزميّته[٣] لبنا .. وقد همّ بالعودة إلى بيته .. إذ رأى الإسكافي قادما فأقبل عليه وسأله أن يصلح نعله ثم جلس بجواره يتتبّع ما يصنع .. كيف اختار خيوطه التي سيعمل بها من بين كلّ تلك البكرات .. كيف انتقى الإبرة المناسبة بنظرة خاطفة على حقيبته وكيف أنه .. بدأ العمل وكأنه آخر عمل يراه ..

---

(١) استشاط غضبا: اشتعل غضبا

(٢) أدران: أوساخ

(٣) زمزميّة: سقاء صغير يحمل فيه المسافر الماء

. وفي طريق عودته توقف ليجمع بعضا من جذوع النخل اليابسة والملقاة على الأرض ليستدفئ بها: كم هو عالم صغير .. أن نختصر مشاعرنا .. فنهمل الفائض منها ليتبقى لنا القليل .. ما نسدّ به الرمق .. ويحملنا على المسير..

. لم يتبق على الغروب سوى لحظات .. ولكن الجوع سلطان جائر:

كم أنا محظوظ لشعوري بالجوع .. فقد كنت أطعم من مائدة طويلة عريضة تكفي لمئة فيل .. كنت أكتفي وأصحابي الذين لا يفارقون عدد أصابعي بالقليل .. فأين يذهب ما تبقى .. ربما في بطون الطهاة .. فأنا أراها في انتفاخ دائم ومستمر ثم جعل يتأمل .. ذلك الفتات بشيء من الندم والحسرة تنهّد مُردفا: قد أشعر بالرضا مع هذا الزاد القليل، ولكن كيف وقد كان في رقبتي .. جياع كثر .. لقد شعر بغصة فترك ما في يده وقام للصلاة ..

. فلما انتهى سكب لنفسه كوبا من اللبن فجعل يتذكر.. أنامل طيف أتاه ليلا يداعب حاجبيه: ما المرأة إلا صبوة الرجل وماؤه البارد الذي تنثره في وجهه ليستفيق ..

. ثم أشعل نارا وجلس بجوارها يرنو[1] إليها في صمت وسكون لتتحدَّث إليه .. من خلف الحُجَبِ بنأمة صوتها المرهفة تناجيه:

أيها الواقف في السراب ..

أما اشتقت أم أنّك تخشى ..

لحظة تلقى فيها الأحبة ..

فإن كُنت ستأتي .. فلم الانتظار؟!

---

(١) يرنو: أدام النظر في سكون الطرف

الفصل الخامس

قيل .. إن الحُبَّ لا ينهيه سوى حُب آخر .. وبأن الفراق هو أفضل علاج لعاشقين اشتدّ بهما الخصام .. وإن الرجل قد يحب أكثر من امرأة .. وإن المرأة هي صلة الرجل بقلبه، وما القلب إلا المحرك الرئيسي لكل تلك المشاعر ..

والشاهد هنا .. أن لا صحة البتَّة في أيٍّ من تلك السطور ..

فالحُبُّ متى اشتد عوده فلا حُبَّ آخر يُنهيه ..

وأنَّ الاتفاق هو أفضل علاج لخصمين في الحُب، يعلمان علم اليقين .. أنَّه بالفراق لن تعود الحياة حلوة كما كانت ..

وأنَّ الرجل قد تكون له في حياته أكثر من امرأة .. غير أنه لن يحب سوى واحدة ..

وأنَّه .. أعني الرجل عُذرا .. هو الصِّلة لكل الصلات إلى قلبه .. إن شاء أبقاها، وإن شاء نسيها أو تناساها لسبب أو .. من دون سبب .. ولست أتحدث هنا عن الرجال كافة .. بل عن فئة معينة تضم معظم الرجال .. أما المرأة .. فهي العكس تماما والحقُّ يُقال ..

وليس القلب إلا ضحية لجوارحنا التي تحرك لواعجه .. وهو الكتلة اللحمية التي تبثّ الدم في جسد مغلق محكم الإتقان .. فتوقظ فيه مكامن الشهوات والرغبات .. الغضب وحب الانتقام .. فهي التي تعقل وترى .. تدرك وتسمع، فترسل إليه رسائل خاصة فينتقي وينفعل ويضطرب ويبقى وفيّا

لأحاسيسه مهما تبدّل الحال .. إنه كالمعدن الحر النقي، مهما تشكّل وتغير فإنه يبقى محتفظا بسماته التي تضفي عليه بريقه ولمعانه ..

في القلب هنا تكمن ..

مسميات الحُبِّ ..

وبقاياه ..

وألحان عذابه ..

فرحة اللقيا ..

وآلام الفراق ..

هنا ..

يُصنع ذلك الرباط الذي يزداد متانة كلما بَعُدت المسافة بين المحبّ والحبيب، حين ألَّف بينهما حين قرَّ واستقرَّ مطمئنا بينهما .. حُبٌّ عميق خضعت له كل المشاعر احتراما وتبجيلا .. فبينما كانت خولة تترقب مجيئه وتنتظر، كانت الزهراء تشعر ببكائه بحديثه معها بتعبه ورغبته الملحِّة في المجيء .. حتى إذا ما أقبل صباح ذو سماء أسقمرية[١].. طُرق الباب - حيث تقضي خولة في جناح الزهراء بصحبتها معظم الوقت - ودربس[٢] القادم نحو الأمام .. حاسر الرأس بزي فلاح منشى[٣] ونعلين قد أرهقهما شدة الكدِّ وكثرة

(١) سماء الاسقمرية: سماء تتلبد فيها صفوف من السحب شبيهة بالسيور والتي تشبه ظهر السمك الاسقمري

(٢) دربس: تقدّم

(٣) زي منشى: مجدّد ومحدّث

الخطى وألقى السلام .. لحظات وتعرفّن فيها عليه .. قد خطّ الشيب شيئا من لحيته وخصلات شعره .. غير إنه لايزال وسيما كما كان .. لحظات أخرى وتأجّج فيها الشوق مُجَدَّدًا .. مُجَدِّدًا عهودا كالذهب الخالص كالماء الريّان[1] .. ضمتّه خولة إليها وجعلت تبكي فوق كتفه وهو يداعبها بألطاف الكلام ويحملها على الابتسام .. ثم قبّل جبينها واستأذنها فأذنت له نحو الطرف الذي لم يخالف محيّاه .. مدّت يدها فجلس قبالتها هنيهة ثم سأل عن حالها فهمهمت تومئ، ثم احتضنت يده الأخرى قالت: لقد شفيت ..

. أعلم ذلك ..

. و أنتظر مولودا ..

. أرى ذلك ..

. ثم صمتت فسألت بتنهيدة ارتأدت[2] لها أطرافه، فهو الحبيب الذي طال انتظاره، وهي التي اشتاق لها بؤبؤ العين وأسباب بقائه: نادني كما اعتدت أن تنادي فيجيبها:

زهرة النرجس البيضاء ..

. وشوقها ينادي .. فجذبت يديه إلى الخلف فعانقته بجرأة وبلطف كما اعتادت .. احمرّت خولة خجلا فاستدارت وتمنّت .. لو كانت بجرأتها .. فهي الأخرى في شوق ولهفة إليه .. لم تدم تلك اللحظات الحميمية بينهما طويلا، إذ شعر الهيثم بخجلها فاسترعى انتباهها ثم أجلسها قربها وجلس هو .. على

---

(١) الريّان: كثيرة الرواء

(٢) ارتأدت: اهتزت وتثنت

متّكأ صغير أمامهما ثم أردف قائلا يضفي بإطرائه عليهما بسمة وسرورا: يبدو أن خولة ستلد طفلة صغيرة بينما ستلد الزهراء توأما ..

. أوتراني أبدو لك سمينة ..

. لا .. لم أقصد ذلك .. ولكن هناك شيء غريب ..

. الزهراء: ماذا؟

. لقد أخبرتني جدتي يوما أن المرأة متى حبلت فهي تزداد جمالا .. وقد صدقت، فإني أراكما قد ازدتّما فتنة وروعة ..

. خولة: وهل هذا حديث زوج يتستّر.. أم حديث زوج ينتظر..

. بل هو حديث زوج يعتذر .. وإني مدين لكما باعتذار .. واستطرد مكملا: فقد طالت غيبتي وأنتما الأحق بجواري وصحبتي فاعذراني .. فقد كنت بحاجة إلى ذلك الوقت كلّه لأعيد تنظيم حياتي وأرقع الفاسد منها .. وقد يصعب عليكما تقبّل ما سأقول، ولكنّكما المعنيّتان في الأمر ولكما الشأن كلّه .. وأردف: لقد تركت الحكم والقصر نحو حياة أخرى .. تتحدث حالي عنها .. فهو النعيم الذي أعادني إلى رشدي، وهو النذر الذي نذرته مذ غادرتني تلك الليلة وأنت إلى الموت أقرب منك إلى الحياة .. لقد نذرته أن يكون مطلع يومي وأوسطه وآخره .. لقد كنت هكذا يوما .. كنت كلما رفعت يديَّ للصلاة مكبّرا .. "الله أكبر" .. كان الله أكبر من همومي كلّها حتى أصبحت صلاتي همومي كلّها .. وقد عدت وما أسعدني بحالي .. فأنا أشعر بالرضا .. فقد صدقني ربي .. فقد شُفيت وعوفيت فحملت .. وما كنت لأخون عهدا قطعته أمام الله .. سأجعل من هذا القصر مدرسة لتعليم القرآن وميتما للأطفال .. ثم سأودع ثمن ما يحويه وما أملكه في بيت المال .. وقد أعلنت عن مجلس للشورى لاختيار

حاكم بديل .. فهو كرسي نلتُه عن ورث توارثناه .. ولكما أن تختارا .. إما الرحيل أو البقاء معي في كوخ صنعته بيدي .. يكاد يحوينا ويكاد يخلو من كل تلك المتع التي تحيط بكم .. غير أننا سنكون معا .. وتلك هي المتعة الحقيقية .. فما قولكما؟ ما إن انتهى .. حتى انفصلتا .. خولة إلى تجهيز حالها والزهراء تسألها أن تستدعي أميمة في الحال لتعدّها للرحيل .. لقد تفاجأ الهيثم بردة فعليهما، ولكنه كان قد تفاجأ أكثر بوجود أميمة .. إذ كان يتقصى أخبار الزهراء وما آلت إليه عن كثب وبحذر متجاهلا أمرها ظنّا منه بأنّها لاتزال هناك .. سألها إن كانت قد عادت .. أجابته وما كادت تُكمل حتى خرج منها كالبرق إليها ليلقاها في غرفة الدرس ..

لقد التمّ الشمل بحضوره ..

والتأمت الجراح أخيرا ..

وقد كان لخولة لحظتها الخاصة قبل أن ترحل ..

في ذلك المساء .. وفي ذلك المأوى المتواضع الذي ضمّ في كنفه .. غرفتين وحَوْشًا كبيرًا ومزرعة صغيرة استظلّت بظله وحظيرة في حاشيته من الخلف .. قد جمعت بين ديك ودجاجة .. بين زوجين من المعز والضأن والأكحل وصاحبتاه .. وعلى مائدة العشاء التي أُعدّت .. بما هو متوافر وبما يملكانه من خبرة ودراية، وبعد أن طُرد الهيثم الذي .. تبنّى صنعه تكفيرا عن ذنبه فهما سيدتا قصره الآن .. المسكين المحظوظ .. الذي ما إن تربَّع جالسًا حتى همّتا وفي الوقت عينه .. إطعامه لقمة، فاحتار في أمره، وقد لاحظ كركرة أميمة

فجعل ينظر .. كالتائه البائس إليهما لتتنازل الزهراء لتتنازل خولة لتصَّر الثانية راضية فهي التي ستسقيه أولا .. ليطعم من يد ويشرب من أخرى ..

وفي تلك الليلة ..

بعد أن داعب الكرى[١] أجفانهم ..

وبعد أن مضى جوش[٢] منها ..

اختلى الهيثم بربه ..

بين جذوع النخل وحشائشه الباسقة الندية ..

قائما وساجدا ..

يبتهل .. يثني .. ويحمد ..

يخاطب ربّه خطابا بروحه إلى خالق الروح ..

حتى إذا ما عسعس الغلس[٣] وعاد .. وجد الكل في شغل .. خولة تستعد للصلاة وتعين الزهراء على الوضوء .. وأميمة بردائها غافية على سجادتها .. يطلب منها الراحة ويمسك بالإبريق مكملا ما بدأت ..

. ابتسمت فسألها: مالذي يضحكك؟

. فأجابت: في المرة القادمة حينما تحاول التسلّل ليلا .. فكن أكثر هدوءًا

. أوعلمت ..

---

(١) الكرى: النعاس

(٢) جوش: صدر

(٣) عسعس الغلس: اقترب الفجر

. لقد علم الكل .. فلما انتهى نادى عليها تلك التي ما إن تركت أميمة حتى عادت فغفت .. وقد حانت بينهما لفتة ندّت[١] عن وِدٍّ واستطراف لم تغفل عنها خولة التي اعترفت وهي تستعد بلسان يائس أيقن بأن المعركة قد حُسمت: لم يعد ذلك سرًّا .. إنها من تحب ..

. أوه .. هناك من هو قلق مرتاب ..

. بجدية وكأَّن الأمر لايهم: لا .. لست كذلك ..

. اممم .. حسنا إذن ولكن ..كيف توصلّت إلى ذلك ؟!

. إنَّه واضح وجَلِيْ .. سيُبصره الأعمى إن لم يُبصره الرائي ..

. توقف .. واتخذ إلى جانبها متكأ وأردف مواسيا إياها مُستلطفا: وهل يخبو[٢] الفرس الأصيل بسيِّده .. ما كنت لأتحدّث بما قُلْتِ عن ظنٍّ شابه شك ..

. لابأس .. فلست متضايقة، فهي تستحق منك ذلك الود .. لو أنك سمعتها كيف كانت تتحدّث عنك في غيابك .. كيف كانت تتتبّع سيْر نعليك[٣].. حتى لأنها تشعر بحزنك تارة وبالفرح تارة أخرى .. بينما كنت أستمع وأنصت فقط .. حتى إذا أقبل يوم أخبرتني فيه أنك قادم غدا .. كذَّبتها في حين صدقت ..

---

(١) ندّت: صدرت

(٢) يخبو: يغدر

(٣) سيرنعليك: خطواتك

. وقد لاحظ الهيثم ما اعتراها في تلك اللحظات من عبرات تكحّلت بها، وبردة[١] من حزن تغشّتها فناداها فلم تجبه وسألته أن يسكب مزيدا من الماء ولمّا لم يفعل .. همّت فمنعها وأدنى جانبا منها حتى التقى بها فقال: إن كانت هي من أحب .. فأنت التي تأسرني بابتسامة منها كلما محضتني[٢] بشيء من ودادها الذي أتشرّق[٣] إليه الآن .. فهل في ذلك عدل؟!

. لا تكذب لأجلي ..

. أوعهدتني كاذبا؟

. أزاحت وجهها الباكي عن محيّاه وبدا كأنها تنتظر منه أن يسكب مزيدا من الماء، فناداها بلهفة: خولة .. لتصرخ الزهراء عاليا .. فقد حان موعد ولادتها .. ليتبدّل حالها فجأة ولتنهرها قائلة: ما على هذا اتفقنا ..

. لتردّ عليها: وماذا بيدي ..

أوصت خولة الهيثم المحتار أن يدعو القابلة[٤] حالا .. خطوات وعاد إليها: أرضيت؟

. تفاجأت به: ماذا تفعل هيا اذهب ..

. سألها بحزمٍ مجددا وهو يشُّد على ساعديها: أرضيت؟

. فهزّت رأسها مبتسمة فانفرجت أساريره ثم أعانها على النهوض وغادر..

---

(١) بردة: ثوب يلتفع به الانسان أو يضعه فوق كتفيه

(٢) محض: خصّ

(٣) أتشرّق: أتطلع

(٤) القابلة: التي تساعد في عملية الإنجاب

هرولت تسرع إليها ما استطاعت .. تتحدث إلى نفسها تتمتم فرحة .. إذ لم يثنه صراخ الزهراء لا حالها عن العودة إليها والاهتمام بمشاعرها: وكيف لي ألا أرضى .. حسبي أن تنظر إليَّ هكذا .. أن تتحدث معي كما فعلت .. لأشعر بالرضا ..

أنجبت الزهراء محمدا .. المغيث واليمامة .. وخولة مريما وليثا ..
وقد ظل الهيثم حاكما للبلاد باختيار من الشعب ..
لتسود أيام من العدل .. من الحرية والمساواة ..
تمتد كأطنابٍ[1] بضوء صريح من بيت دافئ وصغير..
تلك أيام مضت ..
وهذه أيامنا إن شئنا ..
كانت رطبة دافئة ..
أن يكون لكل منّا رواية يرويها وإن شئنا ..
كانت جافّة ..
جامدة ..
تديرها دفّة النسيان ..

" سبحانك اللهم وبحمدك .. أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك "
تمت بحمد الله

(١) أطناب: أشعة تمتد كأنها القضب تظهر مع شروق الشمس

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017